تفسير جزء الزمر

وفوائده وأحكامه

استنبط الفوائد والأحكام

فضيلة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر البراك

فسر الآيات

أ.د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر

دار ابن الجوزي

تفسير جزء الزمر

وفوائده وأحكامه

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البراك، عبد الرحمٰن بن ناصر
تفسير جزء الزمر وفوائده وأحكامه./عبد الرحمٰن بن ناصر البراك؛ العسكر، عبد المحسن بن عبد العزيز.- الدمام، ١٤٤٤هـ
٢٥٥ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٩ ـ ٤٠ ـ ٨٣٨٩ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير أ. العسكر، عبد المحسن بن عبد العزيز (مؤلف مشارك) ب. العنوان
ديوي ٢٢٧ ١٤٤٤/٣٤٨٧

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ

طبع على نفقة محسن كريم
جزاه الله خيرا

الباركود الدولي: 9786038389409

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤٤هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٠١٠٠٦٣
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر - القاهرة:
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٢٧٨٣
٠١١١٢٤٥٨٤٤٤ - ٠١٢٨١٩١٤٠٠١

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
ibnaljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزمر

هذه السورة مكيَّة، وعدد آياتها خمس وسبعون آية، ومَدار السورة على أصول الدين الثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث؛ التوحيد بأنواعه الثلاثة:

الأول: توحيد العبادة أو توحيد الإلهية، في أولها قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾، وفي وسطها قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾، وفي وسطها أيضًا قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾، إلى قوله سبحانه: ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، وفي آخرها قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

الثاني: توحيد الربوبية، في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾، وفي وسطها قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

الثالث: توحيد الأسماء والصفات، في أول السورة في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾، وفي وسطها قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ

أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وفي آخرها قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

الأصل الثاني: النبوة، في أولها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، وفي وسطها في قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

الأصل الثالث: البعث وأدلته، في أول السورة في قوله سبحانه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وفي وسطها في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾، وقوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، وأيضا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وفي آخرها قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وفي آخرها: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخر السورة.

ويُلاحَظ في هذه الآيات التداخل بين هذه الأصول الثلاثة وأنواع التوحيد، حتى إن الآية الواحدة تشتمل على الأصول الثلاثة وأنواع التوحيد الثلاثة، وهذا من وجوه إعجاز القرآن.

وقد تضمَّنت الآياتُ من (١) إلى (٤) الإخبارَ عن تنزيل القرآن بالحق من الله العزيز الحكيم، ثم الأمرَ بعبادته تعالى وإخلاص الدين له وحده لا شريك له، وذمَّ المشركين به والمفترين عليه بنسبة الولد إليه، وتنزيهَه تعالى عن ذلك.

وتضمَّنت الآياتُ من (٥) إلى (٧) الإخبارَ عن خلق السماوات والأرض بالحق، وتقليبَ الليل والنهار، وخلقَ البشر من نفس واحدة، وإنزالَ الأنعام، وخلقَ الإنسان أطوارًا، وأنَّ مردَّ ذلك إلى تفرُّده تعالى بالربوبية والإلهية، ثم الإخبارَ عن غناه تعالى عن عباده، والإخبارَ عن غناه عمَّن كفر به، ورضاه تعالى عمَّن شكره، وعدلَه في جزاء عباده، وكمالَ علمه بأعمال عباده ما يسرون وما يعلنون.

وتضمَّنت الآياتُ من (٨) إلى (١٠) الإخبارَ عن فريقي الإنسان الكافرِ والشاكر، الجاهلِ والعالم، وصفةِ كل واحد، واختلافِ حاليهما، وأنهما لا يستويان، ثم أمرَ المؤمنين بالتقوى، ووعد المحسنين بالحُسنى، وأمرَ المؤمنين بالهجرة في أرض الله الواسعة، ووعد الصابرين على ذلك بالأجر الكثير.

وتضمَّنت الآياتُ من (١١) إلى (٢٠) أمرَ النبي ﷺ بالإخبار عمَّا أُمِر به من التوحيد وإخلاص الدين والإسلام لله، وعن خوفه من عذاب الله إن عصاه، وإخبارَه بامتثاله لما أُمر به من عبادته تعالى وحده لا شريك له، وتهديدَ المشركين بالخسران المبين، وصفةَ حالهم في النار، وأمرَ عباده المخلَصين بالتقوى، وأخبر أن البشرى للموحدين الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها، وأنابوا إلى الله، وهم الذين يستمعون القرآن فيتبعون أحسنه، وأن أولئك هم المهديُّون ذوو العقول الزكيَّة، وإخبارَه تعالى أن النبيَّ ﷺ لا يملك إنقاذ من حقَّت عليه كلمة العذاب من النار، وإخبارَه سبحانه أن المتقين في غرف من الجنات من فوقها غرف تجري من تحتها الأنهار، وأن هذا وعد لا يخلَف؛ لأن الله لا يخلف الميعاد.

وتضمَّنت الآياتُ من (٢١) إلى (٢٣) تنبيهَ العباد على بعض دلائل قدرته تعالى على البعث ورحمته بعباده، وهو إنزال الماء من السماء

وإسكانه في الأرض، وإخراج الزروع به، وما يصير إليه من الذُّبول، وانقسامَ الناس في نظرهم إلى هذه الآيات إلى قسمين، وأنهما لا يستويان، وتنويهَه تعالى بإنزال القرآن أحسن الحديث، وهو غيث القلوب، والإنعام به أعظم من إنزال الماء الذي تحيا به الأرض، وأن الله يهدي بالقرآن من يشاء من عباده، ومنهم من يُضِلُّه عنه.

وتضمَّنت الآياتُ من (٢٤) إلى (٣١) الإخبارَ عن سوء عاقبة من أضلَّه الله وشدةِ عذابه، وما يناله من الخزي في الدنيا والآخرة، وإخبارَه تعالى عن إقامته الحجج على المكذبين بضرب الأمثال في القرآن العربي الذي لا عوج فيه، ومن ذلك: ما ضرب من المثل للموحد والمشرك، وأنهما لا يستويان، وإخبارَه سبحانه عن منتهى هذه الحياة لكلِّ البشر وهو الموت، وبعده البعث والنشور في يوم القيامة، وفي ذلك اليوم يحكم الله بين أوليائه وأعدائه حين يختصمون بين يديه.

وتضمَّنت الآياتُ من (٣٢) إلى (٤٠) إخباره تعالى عن الكاذبين المكذِّبين وأنه لا أظلم منهم، وعن الصَّادقين المصدِّقين وأنهم هم المتقون، وعاقبةَ الفريقين، وإخبارَه سبحانه عن كفايته لعبده ورسوله ﷺ، وعن جهل المشركين وضلالهم؛ إذ يخوِّفون الرسول ﷺ بآلهتهم، وكيف يخافها من كان الله كافيَه؟! وهو سبحانه المتفرد بالهدى والإضلال، وهو العزيز المنتقم من أعدائه، وإخبارَه تعالى عن إقرار المشركين بربوبيته تعالى وخلقِه السماوات والأرض، وأمْرَ الله نبيَّه ﷺ أن يقول للمشركين: إن آلهتهم لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا تمنع ما أراده الله من ضُرٍّ أو رحمة، وأمْرَه تعالى نبيَّه ﷺ بالتوكل عليه وحده؛ لأنه المتفرد بالعطاء والمنع والضر والنفع، وأمْرَه بتهديد المشركين، وأنهم سيعلمون على من تكون دائرة السَّوء بالخزي والعذاب المقيم.

وتضمَّنت الآياتُ من (٤١) إلى (٤٥) الامتنانَ من الله بإنزال الكتاب على نبيه ﷺ لهداية الناس بما اشتمل عليه من الحق في أخباره وشرائعه، وأن من اهتدى به فهُداه لنفسه، ومن ضلَّ عنه فضلاله على نفسه، وأن الرسول ﷺ ليس وكيلا عليهم يهدي من يشاء ويضل من يشاء، بل ذلك إلى الله، وإخبارَه تعالى عن نوع من مقدوراته، وهو قبض النفوس وإرسالها، فيحيي ويميت، وهو المتفرد بذلك، كما هو المتفرد بالهدى والإضلال، وفي ذلك آيات للمتفكرين، وإنكارَه تعالى على المشركين الذين اتخذوا شفعاء من دونه، وهم لا يملكون شيئًا، والله المالك لكل شيء، وهو الذي يملك الشفاعة، فيأذن لمن شاء في الشفاعة لمن ارتضى، وعيبَه تعالى على المشركين بغضَهم للتوحيد وحبَّهم للشرك وآلهتهم الباطلة، وهذا من أقبح أحوالهم، وقد جمعوا بين الشرك والتكذيب بالآخرة، فكذَّبوا الله وأشركوا به، فجمعوا بين الكذب والتكذيب.

وتضمَّنت الآياتُ من (٤٦) إلى (٤٨) أمْرَ الله نبيَّه أن يتوجَّه إليه بهذا الدعاء المذكور، والإخبارَ عن سوء حال الظالمين وشدة عذابهم، وخيبة أعمالهم وانكشاف حقيقة أعمالهم، وإحاطة العذاب بهم.

وتضمَّنت الآياتُ من (٤٩) إلى (٥٢) إخبارَه تعالى عن حال الإنسان الجاهل بالله، الكافر بنعمه، وتقلُّبِ أحواله في السراء والضراء؛ فلا صبر ولا شكر، وتجهيلَه تعالى لهذا الإنسان ووعيدَه له مع بيان حكمته تعالى فيما يُجريه على الإنسان من الأقدار خيرها وشرها، وأنَّ هذا الجهل دأْبُ الإنسان، وأن أعمالهم لا تغني عنهم من الله شيئًا، وإخبارَه تعالى أن سنته في الظالمين ماضيةٌ أولِهم وآخرِهم، ولم يُعجِزوا الله شيئًا، وإخبارَه تعالى عن حكمته وقدرته في بسط الزرق وقبضه، وفي ذلك آيات لقوم يؤمنون.

وتضمَّنت الآياتُ من (٥٣) إلى (٥٩) أمْرَ الله نبيَّه ﷺ بنهي المسرفين على أنفسهم بالذنوب عن القنوط من رحمة الله؛ لأنه تعالى غفور رحيم، وبأمرهم بالإنابة إليه سبحانه، وأن يسلموا له مبادرين العذاب الذي ليس منه ناصر، وبأمرِهم باتباع أحسن ما أنزل إليهم من ربهم من قبل أن يأتيهم العذاب على غرة وهم لا يشعرون؛ لئلا يندموا بعد فوات الإنابة والتوبة، فتقولَ نفس كلٌّ مفرط: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله، وتُقِرَّ بأنها كانت من الساخرين، وتلتمسَ العذر لتفريطها، وتتمنَّى الرجعة عند رؤية العذاب، ثم يجيء الردُّ بتذكيرها أن قد جاءتكَ الآيات فكذبتَ بها واستكبرتَ وكنتَ من الكافرين.

وتضمَّنت الآياتُ من (٦٠) إلى (٦٣) الإخبارَ عن سوء حال الكاذبين على الله يوم القيامة المستكبرين عن آياته، وحسنِ عاقبة المتقين، ونجاتِهم من عذاب الله، وذهابِ الحزن والخوف عنهم، وتضمَّنت الإخبارَ عن عموم خلقه تعالى وعموم ملكه، وكمالِ تصرفه في تدبير خلقه، وحكمِه تعالى على الكافرين بآياته بالخسران المبين.

وتضمَّنت الآياتُ (٦٤) إلى (٦٧) أمْرَه تعالى لنبيه ﷺ أن ينكر على المشركين دعوتهم له إلى عبادة غير الله، وتحذيرَ نبيِّه ﷺ من المشركين كما حذَّر من قبله من المرسلين، وأمْرَه بالتوحيد وشكرِ نعمه تعالى، والإخبارَ عن ضلال المشركين وجهلِهم بالله العظيم الذي يقبض الأرض والسماوات بيديه، وهو الحقيق بإخلاص العبادة له، وهو الذي يجب تعظيمُه وتنزيهُه عن الشرك وإخلاصُ الدين له ﷻ عمَّا يشركون.

وتضَّمنت الآيات من (٦٨) إلى (٧٠) الإخبارَ عن النفخ في الصور يوم القيامة؛ نفخة الصَّعق ونفخة البعث من القبور، ومجيءِ الرب تعالى للفصل بين العباد، وإشراقِ الأرض بنوره تعالى، ووضعِ الكتاب كتاب

الأعمال الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وإتيانِ النبيين والشهداء للشهادة على العباد والقضاءِ بينهم بالحق وهم لا يظلمون، وأنَّ كلَّ نفس توفَّى ما عملت والله أعلم بما يفعلون.

وتضمَّنت الآياتُ من (٧١) إلى آخر السورة الإخبارَ عن سَوْق أهل الموقف إلى منازلهم؛ الكافرين إلى جهنم، وتوبيخِ الخزنة لهم، والمتقين إلى الجنة، وتسليمِ الخزنة عليهم، وحمدِهم ربَّهم على ما منَّ به عليهم من إيراثهم الجنة؛ تصديقا لوعده تعالى، وهناك تُرى الملائكة حافِّين من حول العرش، مسبِّحين بحمد ربهم، وهناك يتحقق قضاءُ الله بين العباد، وكلٌّ له حامدون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن تنزيل القرآن بالحق من الله العزيز الحكيم، والأمرَ بعبادة الله وحده وإخلاصِ الدين له، وذمَّ المشركين به والمفترين عليه بنسبة الولد إليه، وتنزيهَه تعالى عن ذلك.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ مبتدأ ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ خبره؛ أي: هذا الكتاب ـ الذي هو القرآن ـ منزَّلٌ من الله تعالى، وسمِّي القرآن كتابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة، وفي مصاحف المؤمنين، فالكتاب اسم من أسماء القرآن، وأل في ﴿الْكِتَابِ﴾ للعهد الذهني؛ أي: الكتاب المعهود المعلوم في أذهانكم.

قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزِ﴾؛ أي: القويُّ الذي له القدرة التامة والإرادة النافذة فلا يُغلَب ﴿الْحَكِيمِ﴾؛ أي: ذو الحكمة في أقواله وأفعاله وشرعه وقدَره، فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ هذا شُروع في بيان وصف الكتاب العظيم، وما يجب على مَن أُنزل عليه، وهو الرسول ﷺ، فالخطاب له، وليس قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تكرارًا لقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ لأن المصدر (التنزيل) يدل على نزول القرآن مفرَّقًا، خلافًا للإنزال فإنه يدل على نزول الشيء جملة، كما هو الغالب في دلالتي الفعلين (نزَّل) و(أنزل).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إنا أنزلنا إليك الكتاب إنزالًا مصحوبًا بالحق مشتملًا عليه، فلا شبهة في أنه منزَّل من الله العزيز الحكيم، فأحكامه عدل، وأخباره صدق، وهو مشتمل على جميع أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، وهذا ممَّا يوجب تصديقَه والعملَ به، فأفاد قولُه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ معنيين:

الأول: أن نزوله حق من الله، وليس مفترى كما يقول المشركون.

الثاني: أن القرآن مشتمل على الحق، أخباره وشرائعه.

وإعادة ذكر ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ دون ذكره بالضمير للتنويه بشأن القرآن.

قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: دُم على عبادته بالحب والتعظيم، والإجلال والاستسلام له تعالى ﴿مُخْلِصًا﴾ حال من فاعل (اُعْبُد) والخطاب للنبي ﷺ ويشمل أمته ﴿لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: العبادة؛ أي: اعبد الله ـ وحده ـ ممحِّضًا له العبادة من شوائب الشرك.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ ﴿أَلَا﴾ حرف تأكيد وتنبيه، فهو يفيد تنبيه السامع لما بعده، واللام في ﴿لِلَّهِ﴾ للاستحقاق؛ أي: أَلَا لله ـ وحده ـ العبادة الخالصة النقيَّة من الشرك والرياء ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: آلهة باطلة يوالونها بالتقرب إليها

بالعبادة والتقرب بها إلى الله، وهم المشركون يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ الزُّلفى: القُربة والمنزلة، وهي مصدر مؤكد لـ (يقربونا) مِن غير لفظه، ولكنه متحد به في المعنى، كقولهم: قعد فلان جلوسًا، بدل قعد قعودًا. المعنى: أن هؤلاء المشركين يقولون معتذرين عن عبادة آلهتهم مع الله: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله منزلةً بشفاعتهم لنا عنده، ولا شك أن هذا من أعظم الضلال، فإن الله ﷻ إنما يُتقرب إليه بعبادته وطاعته من غير واسطة، ثبت ذلك بتواتر الرسل والكتب، ولهذا توعَّد اللهُ الكافرين على كذبهم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يحكم بين جميع الخلائق مؤمنهم وكافرهم ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الدين، فيُدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾؛ أي: لا يوفق للهداية ﴿مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ﴾؛ أي: مفترٍ على الله كالذين يزعمون لله الولد، وأن الأوثان تشفع عنده ﴿كَفَّارٌ﴾؛ أي: عظيم الكفر بربه، وفي الآية إشارة إلى كذبهم في زعمهم أن معبوداتهم تقربهم إلى الله.

قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أراد إرادة كونية فتفسَّر بالمشيئة؛ أي: لو شاء الله ﴿أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾؛ أي: يجعل لنفسه ولدًا، كما قالت اليهود: عزير ابن الله، وكما قالت النصارى: المسيح ابن الله، وكما قال مشركو العرب: الملائكة بنات الله ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: لاختار من خلقه ما يشاء هو، لا ما تشاؤون أنتم، ولو اتخذ ولدًا بالاصطفاء، فإن هذا الولد لا يخرج عن كونه مخلوقًا عبدا لله، فهذا غير ممتنع عليه تعالى؛ لأنه تعالى فعَّال لما يريد، والممتنع على الله هو أن يكون له ولد بالولادة، وهو المقصود بقوله

تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، وما اتخذه الله ولدًا بالاصطفاء من خلقه هو ابن لله بالتبني الذي لا يُخرجه عن العبودية لله، ومِن أحسن مَن عبَّر عن معنى هذه الآية ابنُ عطية رَحِمَهُ اللَّهُ إذ قال: «قوله تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ﴾ معناه: اتخاذ التشريف والتبني، وعلى هذا يستقيم قوله تعالى: ﴿لَٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ﴾، وأما الاتخاذ المعهود في الشاهد [يعني اتخاذ النسل] فمستحيل أن يُتوهم في جهة الله تعالى، ولا يستقيم عليه معنى قوله: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ﴾، ومما يدل على أن معنى قوله: ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾: الاصطفاء والتبني قوله: ﴿مِمَّا يَخۡلُقُ﴾؛ أي: من موجوداته ومحدثاته»[1]؛ أي: مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزَّه تعالى وتقدَّس عن أن يكون له ولد بالولادة، كما يقول المشركون، ولهذا قال تعالى: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ [الإخلاص: ٣]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الصافات: ١٥١ ـ ١٥٢]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ﴾؛ أي: لا ثاني له، فهو الإله الواحد الأحد، المنزَّه عن المثيل والنظير، وهذا الاسم ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ يشير إلى تنزُّهه تعالى عن الولد؛ لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد؛ لأنه لو كان له ولد لكان من جنسه، ولا جنس له تعالى؛ لأنه واحد ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾؛ أي: الغالب بعزَّته وكمال اقتداره، و﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ صيغة مبالغة تفيد كمال اتصافه تعالى بصفة القهر، فهو ربُّ الخلائق الذي قهرها بقدرته تعالى فذلَّت له وانقادت، فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه تعالى، وفي هذا الاسم إشارة إلى نفي الشركاء والأنداد؛ لأنَّ كلَّ شيء مقهورٌ تحت قهره تعالى، فكيف يكون شريكًا له؟!

---

(١) «المحرر الوجيز» (٤/ ٥١٩).

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن القرآن كلام الله منزَّلٌ منه إلى النبي ﷺ غير مخلوق.

٢ ـ الرد على المشركين في زعمهم أن القرآن مفترى.

٣ ـ أن من أسماء القرآن: الكتاب، وشواهد ذلك في القرآن كثيرة، كما في مطالع السور المكيَّة.

٤ ـ أن للقرآن شأنًا عظيمًا.

٥ ـ إثبات العلو لله تعالى.

٦ ـ أن إنزال القرآن كان مفرَّقًا؛ لقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٧ ـ إثبات الاسمين الكريمين لله تعالى: العزيز والحكيم، وإثبات ما تضمَّناه من صِفَتي العِزَّة والحكمة.

٨ ـ اصطفاء الله النبيَّ ﷺ لإنزال القرآن عليه.

٩ ـ تضمُّن القرآن للحق في جميع مسائل الدين العلميَّة والعمليَّة، وفيما يدعو إليه.

١٠ ـ أن إنزال القرآن نعمة عظمى تقتضي الشكر بعبادة الله وإخلاص الدين له.

١١ ـ وجوب إخلاص الدين لله، وعظم شأنه عند الله.

١٢ ـ أن الدين الخالص هو دين الله، الذي هو الإسلام.

١٣ ـ أن المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء ما اتخذوهم إلا ليكونوا وسائط وشفعاء تقربهم إلى الله.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

١٥ ـ إقرار المشركين بربوبية الله تعالى وعظمته.

١٦ ـ وعْد الله الحكم بين العباد فيما اختلفوا فيه يوم القيامة.

١٧ ـ إثبات الحكم الجزائي لله تعالى.

١٨ ـ إثبات البعث.

١٩ ـ حرمان الكاذب الكفَّار من هُدَى الله.

٢٠ ـ أن الله هو الهادي لمن يشاء.

٢١ ـ أن الصدق والإيمان سبب لهداية الله.

٢٢ ـ إثبات الإرادة الكونية والمشيئة لله تعالى؛ لقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

٢٣ ـ الردُّ على المعتزلة في قولهم: إن العبد يهتدي بنفسه.

٢٤ ـ أن من الكفار من لا يهديهم الله.

٢٥ ـ كمال سلطان الله ونفاذ مشيئته.

٢٦ ـ بطلان ما ادَّعاه المشركون واليهود والنصارى من نسبة الولد إلى الله.

٢٧ ـ امتناع أن يكون لله ولد إلا باصطفاء ما يشاء من خلقه بالتبنِّي تشريفًا.

٢٨ ـ تنزيه الله أن يكون له ولد أو شريك؛ لقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

٢٩ ـ غِنَى الله أن يكون له ولد.

٣٠ ـ إثبات قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى؛ لقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

٣١ ـ إثبات اسمين من أسماء الله؛ الواحد والقهَّار، وما تضمَّناه من صِفَتي الوَحدة والقهر.

ولما نزَّه سبحانه نفسَه عن اتخاذ الولد أتبع ذلك بذكر خلقه السماوات والأرض وتسخيره الشمس والقمر، دلالة على عبودية كلِّ أحد له، والعبد لا يكون ولدًا، **فقال سبحانه:**

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيةُ بعض الأدلة على ربوبيته تعالى وإلهيته؛ من خلق السماوات والأرض، وتكويرِ الليل والنهار، وتسخيرِ الشمس والقمر إلى أجل معلوم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: خلق اللهُ السماوات السبع والأرضين السبع خلقًا مصحوبًا بالحق؛ أي: مشتملًا على الحكم والمصالح؛ أي: لا عبثًا ولا لعبًا، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ [ص: ٢٧] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩].

فهذه المخلوقات العظيمة من السماوات السبع، والأرضين السبع وما بينهما من المخلوقات، كلها خلقت بالعدل والحكمة البالغة، ليعرف العبادُ عظمةَ خالقها وموجدها فيعظموه ويُفردوه بالعبادة، كما

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: يلفُّه عليه حتى يذهب ضوؤه، كما تُلفُّ العمامةُ على الرأس، والتكوير: اللَّفُّ واللَيُّ، يقال: كَوَّر العمامة على رأسه إذا لواها ولفَّها ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ يلفُّه عليه حتى يُذهِب ظلمتَه، كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، شُبِّه الليل والنهار كلُّ واحد منهما بشيء ظاهر لُفَّ عليه ما يغيِّبه، ووجه الشبه التغييب؛ أي: لمَّا كان كلُّ واحد منهما يغيِّب الآخر شُبِّه باللفافة التي يُغيَّب الملفوف فيها بالستر والإحاطة.

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]، فإيلاج الليل في النهار هو تكوير النهار على الليل، وإيلاج النهار في الليل هو تكوير الليل على النهار.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ أي: ذلَّلهما اللهُ بقدرته العظيمة لمصالح عباده ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: كلٌّ منهما يسير في فَلَكه إلى وقت معلوم، وهو يوم القيامة ﴿أَلَا﴾ حرف تأكيد وتنبيه، فهو ينبه السامع للانتباه لما بعده ﴿هُوَ﴾ أي: الله ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: القويُّ الذي له القدرة التامة، والإرادة النافذة فلا يُغلب، ولا يخرج شيء عن سلطانه ﴿ٱلْغَفَّارُ﴾؛ أي: الكثير الستر للذنوب والعفو عنها، وفي ختم الآية بهذا الاسم مناسبة حسنة، فإنه تعالى مع خلقه هذه المخلوقات العظيمة وتسخيرها ومع كونه القويَّ الغالب، فهو تعالى غفَّار عظيم الرحمة والإحسان.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن السماوات والأرض محدَثة بخلق الله لهما.

٢ ـ الرد على الفلاسفة في قولهم بقِدَم السماوات والأرض.

٣ ـ أن السماوات عددٌ، وهي سبع، كما في الآيات المصرِّحة بذلك.

٤ ـ الإشارة إلى الحكمة في خلق السماوات والأرض؛ لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٥ ـ تكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل.

٦ ـ أن الأرض كُرويَّةُ الشكل.

٧ ـ تسخيره تعالى الشمس والقمر للعباد.

٨ ـ الإنعام على العباد بالليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر.

٩ ـ أن الشمس والقمر يجريان في فلكهما؛ لقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

١٠ ـ إثبات قدرة الله.

١١ ـ أن لهذا العالم نهاية وأجلًا مسمًّى عند الله تعالى.

١٢ ـ عِظَم شأن العلم بأسماء الله وصفاته؛ لقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ﴾

١٣ ـ إثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما العزيز والغفَّار، وما تضمَّناه من صِفَتي العزة والمغفرة.

ولما ذكر تعالى دلائل ربوبيته في العالم العلوي ذكر نظائرها في العالم السُّفلي؛ **فقال سبحانه:**

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان ذكرَ خلقِ الناس من نفس واحدة في بطون أمهاتهم خلقًا من بعد خلق، وإنزالِ الأنعام، وإثباتِ عمومِ ملكه وتفرده تعالى بالإلهية، وغناهُ تعالى عمَّن كفر به، ورضاهُ عن الشاكرين، ورجوعِ العباد إليه بعد البعث، وتنبئتهم بأعمالهم، وإحاطةِ علمه تعالى بكلِّ شيء حتى ما في الصدور.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿خَلَقَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؛ أي: ثم بعد مدة خلَق من آدم زوجه حوَّاء، فهي خُلِقت من ضِلَعه ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾؛ أي: ثمانية أنواع ذكرًا وأنثى يكون بها التناسل وبقاءُ النوع، وهي المذكورة في سورة الأنعام: من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومعنى إنزالها؛ أي: أنزلها من ظهور

الفحول في أرحام الإناث، ثم أنزل الأجِنَّة من بطون الأمهات إلى الأرض.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن معنى الإنزال في الآية هو الخلق والإيجاد، وليس ذلك بصحيح؛ لأن الإنزال في جميع مواضعه في القرآن يراد به الإنزال من علو، وهو كذلك في اللغة، فتفسيره بالخلق والإيجاد لا يستقيم؛ فإنه يلزم منه الإخبار عن كلِّ ما على الأرض من جماد ونبات بأنه مُنزَلٌ، وهذا لم يقله أحد ولا يصح في الواقع.

وخُصَّت هذه الأزواج بالذكر؛ لكثرة منافعها، كما ذكر ذلك في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ الآيات [الأنعام: ١٤٢ ـ ١٤٤]، وسورة النحل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥].

قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾؛ أي: طورًا من بعد طور، يعني: أن الإنسان يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم ينفخ فيه الروح ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ هي ظلمة البطن والرحم والمشيمة، وهي كيسٌ غشاءٌ يخلق مع الجنين غلافًا له لوقايته، وهو ليِّنٌ يتكيَّف فيه الجنين، ويكون فيه تكوينه وتصويره، وفي خلقه في هذه الظلمات حفظ له حتى يتم خلقه، فتبارك الله أحسن الخالقين.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ إعرابها: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾ خبره ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبر ثان، ويصلح أن يكون صفة للاسم الشريف، أو بدلًا منه ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ خبر آخر أو جملة مستأنفة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مستأنفة مقرِّرة لمعنى الربوبية، ويصحُّ أن تكون خبرًا بعد خبر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المشار إليه هو مَن خَلَق هذه الأشياء

وهو الله؛ أي: ذلكم العظيم الشأن الذي خلق كل هذه المذكورات، وأنعم بتلك النعم ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: خالقكم ومُربِّيكم ومالك أمركم ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾؛ أي: له ـ وحده ـ ملك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، فله تعالى التدبير التام، والتصرف المطلق في هذا الملكوت إيجادًا وإعدامًا، وخفضًا ورفعًا، وعطاءً ومنعًا ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق إلا هو ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؛ أي: فكيف تُصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره بعد هذا البيان؟! والصارف لهم الشيطان وأنفسهم الأمارة، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجُّب.

ولما أظهر تعالى دلائل قدرته وآثار رحمته بيَّن سبحانه أنه غنيٌّ عن طاعات المطيعين، وأن هذه الطَّاعات لا تنفع إلا أنفسهم، وذكَر الفريقين الكافر والشاكر وعاقبتهما، فقال سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟﴾؛ أي: إن تكفروا بالله أيها الناس ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾؛ أي: غنيٌّ عن إيمانكم وطاعتكم، وليس به إليكم حاجة، ولا يضرُّه كفركم ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾؛ أي: ومع هذا فلا يرضى لعباده أن يكفروا به ولا يأمرهم بالكفر؛ لأنه يوقعهم في الهلاك والعذاب، وإن كان كفرُهم واقعًا بمشيئته تعالى وإرادته الكونية ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾؛ أي: وإن تشكروا ربكم على نعمه فتؤمنوا به ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾؛ أي: يرضَ الشكر لكم؛ أي: لأجل منفعتكم ونجاتكم من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾؛ أي: ولا تحملُ نفسٌ ﴿وَازِرَةٌ﴾؛ أي: حاملةٌ حملًا ثقيلًا من الذنوب ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾؛ أي: لا تحمل نفسٌ ذنبَ غيرها، ولا يؤخذ أحدٌ بجريرة غيره ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم إليه تعالى بالبعث ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: فيخبركم بالذي كنتم تعملون فيجازيكم عليه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ

﴿ٱلصُّدُورِ﴾ هذه الجملة أخصُّ من التي قبلها، وهي تعليل لما قبلها وتقرير له ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ﴾ أي بالغ العلم ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بصاحبة الصدور، فـ (ذات) مؤنث (ذو)، وصاحبة الصدور هي: الأسرار والخواطر النفسية، وجُعِلت صاحبةً للصدور؛ لأنها ملازمة لها لا تنفك عنها. فعلمه تعالى محيط بكل شيء، فإذا كان يعلم ما يُضمره الإنسان في صدره فهو تعالى يعلم ما يُظهره الإنسان للناس وما يتكلم به.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن خلْق الناس من نفس واحدة، وهي آدم عليه السلام، وأن زوجه مخلوقة منه.

٢ ـ أن أصل البشرية بشر، لا كما يقول الملحدون: إن أصلهم قردٌ.

٣ ـ أن جنس البشر محدَثٌ، وليس أزليًّا.

٤ ـ إثبات الجعل الكوني.

٥ ـ إثبات الإنزال الكوني في قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾

٦ ـ إنزال الأزواج الثمانية من الأنعام.

٧ ـ الإنعام من الله بإنزال الأنعام الثمانية.

٨ ـ خَلْق الله لبني آدم في بطون أمهاتهم أطوارًا؛ نطفة فعلقة فمضغة، ولله في ذلك حكمة بالغة.

٩ ـ الإخبار عن أحوال بطون الأمهات، وفي ذلك **فائدتان:**

أ ـ علم الله بما في بطون الأمهات.

ب ـ إثبات إعجاز القرآن؛ لِما اشتمل عليه من أنباء الغيب.

١٠ ـ إثبات عموم ملك الله.

١١ ـ إثبات الربوبية العامة.

١٢ ـ كمال قدرة الله في خلق هذه المخلوقات.

١٣ ـ أن خالق هذه المخلوقات هو المالك، وهو المستحق للعبادة وحده.

١٤ ـ تفرُّده تعالى بالإلهية.

١٥ ـ توبيخ الكافرين على عدم التفكر في هذه المخلوقات، وعلى شركهم بالله.

١٦ ـ غناه تعالى عمَّن كفر به.

١٧ ـ إثبات صفة الغِنى لله عن خلقه.

١٨ ـ أنه تعالى لا يرضى لعباده الكفر.

١٩ ـ رضا اللهِ الشكرَ للشاكرين له.

٢٠ ـ إثبات صفة الرضى لله تعالى.

٢١ ـ أن الرضا غير المشيئة، خلافًا للجبرية والقدرية.

٢٢ ـ أنه لا تلازم بين الرضا والمشيئة؛ فقد يشاء ما لا يرضاه، ويرضى ما لا يشاؤه، فالأول ككفر الكافر فقد وقع بمشيئة الله وهو تعالى لا يرضاه، والثاني كإيمان الكافر الذي لم يؤمن؛ فإن الله يرضاه ويأمر به، ولكنه تعالى لم يشأه؛ إذ لو شاءه لوقع.

٢٣ ـ إثبات قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى، ومنها الرضا.

٢٤ ـ إثبات العبودية العامة؛ لقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾.

٢٥ ـ أنه تعالى لا يعاقِب أحدًا بذنب غيره.

٢٦ ـ رجوع العباد إلى ربهم يوم القيامة.

٢٧ ـ إثبات البعث والجزاء.

٢٨ ـ تنبئة الله العباد بأعمالهم يوم القيامة، ومجازاتهم عليها.

٢٩ ـ إثباتُ علمه تعالى بما في الصدور.

٣٠ ـ وجوب مراقبة الله على الدَّوام.

ولما ذكر تعالى دلائلَ ربوبيته وإلهيته من خلق السماوات والأرض، وتكوير الليل على النهار، وخَلْقَ الناس من نفس واحد، وإنزالَ الأنعام الثمانية، وخَلْقَ الناس أطوارًا في بطون الأمهات؛ ذكَر أن الناس فريقان: مؤمن بالله موحد في ربوبيته وإلهيته، ومشرك به قد جعل لله أندادًا، وهو متناقض متردد بين الإقرار والإنكار، **فقال سبحانه:**

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾.

▣ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هاتان الآيتان الإخبارَ عن فريقي الإنسان: الكافر بنعم الله، والشاكر له تعالى، وصفةِ كل فريق، وأنَّ مَرَدَّ ذلك إلى العلم وعدمه، وأنه لا يتذكر بهذا التذكير إلا ذوو العقول السليمة.

▣ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: الكافر بدليل قوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾. ﴿ضُرٌّ﴾؛ أي: مكروه في جسده أو ماله أو أهله من مرض أو فقر أو كرب ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾؛ أي: راجعًا إليه بالدعاء والتوبة، معرضًا عن أصنامه التي كان يدعوها وقت الرخاء ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾؛ أي: أعطاه اللهُ نعمة منه مكان الشدة بالشفاء من مرضه، أو أغناه من فقره، أو نجَّاه من كربه ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: نسي

الضُّر الذي كان يدعو الله إلى كشفه، كما قال تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ٤١]، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ جمع نِدٍّ، وهو النَّظير؛ أي: وجعل لله أمثالًا من الأصنام شركاء في عبادته تعالى ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: ليُضلَّ نفسَه وغيرَه عن دين الله، واللام يحتمل أن تكون للعاقبة؛ أي: جعل لله أندادًا ليُضِلَّ الناسَ عن سبيل الله، ويحتمل أن تكون للتعليل؛ أي: من أجل أن يُضلَّ الناس.

وقد توعَّده اللهُ على ذلك بقوله سبحانه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾؛ أي: قل ـ أيها الرسول ـ لمن هذه صفته: تلذَّذ بكفرك زمنًا قليلًا، واصنع ما شئت إلى أن ينتهي عمرك في هذه الحياة الفانية، وفيه إشعار بأن الكفر نوع من التشهي لا سند له، وتيئيس للكافرين من التمتع في الآخرة، فالأمر ﴿تَمَتَّعْ﴾ للتهديد، وليس على ظاهره؛ لأن الله لا يأمر بالكفر، وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وافتتاح التهديد بـ ﴿قُلْ﴾ يدل على أهمية المَقُول، ولفت الأذهان إليه، وضرورة تبليغه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: من أهلها الملازمين لها، فلا يخرجون منها أبد الآباد، وإنما جُعِلوا أصحاب النار؛ لشدة استحقاقهم لها، ولا يطلق أصحاب النار إلا على من يخلد فيها، فلا يقال لعصاة المؤمنين أصحابُ النار، ولو دخلوها وعُذِّبوا ما عُذِّبوا.

وتضمَّنت هذه الآيةُ توبيخًا وإقامة حجة، فالتوبيخُ على الكفر وتركِ دعاء الله، وإقامةُ الحجة على المشرك بدعاء الله عند الشدائد.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ليس هذا من تمام الكلام المأمور بقوله، بل هو مع الكلام المقدَّر استئنافٌ لبيان التباين بين الفريقين.

و﴿أَمَّنْ﴾ مركَّبة من كلمتين (أم) المنقطعة التي تقدر بـ (بل) والهمزة، و(مَن) التي هم اسم موصول بمعنى الذي؛ فـ (أم) هنا تفيد معنى همزة الاستفهام الإنكاري المفيد للنفي، ومعنى (بل) التي تفيد الانتقال من موضوع إلى آخر؛ أي: هل مَن هو قانت في عبادة الله يستوي مع الكافر الذي جعل لله أندادًا؟! فأفاد الاستفهامُ نفي التساوي بين الفريقين بأبلغ وجه.

قوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾؛ أي: قائم بالطاعات، مداوم عليها ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: ساعات الليل، جمع إِنًى، مثل: أمعاء ومِعًى، وأصل الإِنَى الجزء من الوقت ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾؛ أي: يصلي لربه، ويعبده ظاهرًا وباطنًا، أما ظاهرًا فقوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ وأما باطنًا فهو قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾؛ أي: يخاف عذاب الآخرة ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: يرجو أن يرحمه الله ويدخله الجنة، ورحمة الله هنا يحتمل أن يكون المرادُ الرحمةَ الصفةَ القائمة بالله، وأن تكون الرحمةَ المخلوقة التي هي الجنة، ودل قوله ﴿يَحْذَرُ﴾ و﴿يَرْجُواْ﴾ على أن حَذَر هذا القانت ورجاءه يتجدد ويتكرر في كل وقت، فإن صيغة المضارع تدل على الدوام مع تجدد الفعل آنًا بعد آنٍ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أعاد فعل الأمر ﴿قُلْ﴾ لاستدعاء الأسماع، ولأهمية ما يأتي بعده ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: يعلمون العلم الشرعي وما أمرهم الله به، وهو العلم الصحيح النافع في الدنيا والآخرة، وكل ما ورد في فضل العلم والعلماء فالمراد به علم الكتاب والسنة ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: الجاهلون بالله وبدينه، والاستفهام للإنكار الدال على النفي؛ أي: لا يستوي العالم والجاهل في الحال والمآل، وفي ذكر هذه الجملة بعد قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ دلالة

على أن قيام الليل هو مقتضَى العلم ودأب العلماء ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: إنما يتعظ أصحاب العقول السليمة، ويدخل فيهم أهلُ العلم دخولًا أوليًّا، وهذا وجه اتصال هذه الجملة بما سبقها، وإن كانت غير داخلة في الكلام المأمور به، بل هي جملة مستأنفة.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من عجائب الإنسان الجاهل بربه: إنابتَه إلى ربه في الضَّرَّاء، وإعراضَه عنه في السَّرَّاء، حتى يشركَ بالله.

٢ ـ أنَّ مَن هذه حاله مصيرُه إلى النار.

٣ ـ إقرار الكافر بربوبيته تعالى.

٤ ـ إثبات الربوبية العامة.

٥ ـ أدب الكلام في إضافة الخير إلى الله دون الشر.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ولقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

٧ ـ أن النِّعم كلها من الله.

٨ ـ ذمُّ من لم يدعُ ربه إلا عند الشِّدَّة، وأنَّ هذا خُلُق الكافر، فعلى المسلم ألَّا يتشبه به.

٩ ـ أن التعبد لله بسبب الضرورة لا يثاب عليه في الآخرة.

١٠ ـ أنه الله ليس له نِدٌّ.

١١ ـ أن من مقاصد الكفار الإضلالَ عن سبيل الله.

١٢ ـ أن الإضلال يكون بالفعل، كما يكون بالقول.

١٣ ـ تهديد الكافر المغرور بنعم الله.

١٤ ـ أن متاع الدنيا قليل؛ لأنه إلى زوال.

١٥ ـ أن الكفار هم أصحاب النار؛ لأنهم فيها مخلَّدون.

١٦ ـ إثبات النار التي أعدَّها الله للكافرين.

١٧ ـ أن من صفة الإنسان الشاكر لله: القنوتَ لله آناء الليل سجودًا وقيامًا ورجاء وحذرًا.

١٨ ـ فضل قيام الليل.

١٩ ـ الترغيب في قيام الليل.

٢٠ ـ فضل إحياء الليل كلِّه بالصلاة، ولكن الأفضل قيام داود، كما صح به الحديث[1]، وقد يكون إحياء الليل كله أفضل، كما أحيا النبيُّ ﷺ العشرَ الأخيرَ من رمضان.

٢١ ـ فضيلة جنس الصلاة على غيرها من العبادات.

٢٢ ـ فضل القيام والسجود في الصلاة على الركوع.

٢٣ ـ فضل السجود على القيام؛ لتقديمه عليه في الذكر، ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

٢٤ ـ إثبات البعث والجزاء؛ لقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

٢٥ ـ إثبات الرحمة لله تعالى.

٢٦ ـ مشروعية الجمع في العبادة بين الرجاء والخوف.

٢٧ ـ الردُّ على من قال من الصوفية: لا أعبد الله طمعًا في الجنة أو خوفًا من النار.

٢٨ ـ فضل العلم بالله وبشرعه، وذمُّ الجهل.

---

(١) رواه البخاري (١١٣١) ومسلم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

٢٩ ـ أن دوام الطاعة خوفًا ورجاءً يدل على العلم، ولهذا يقال: ثمرة العلم العمل.

٣٠ ـ الثناء على الشاكر بالعلم، ووصف الكافر بالجهل.

٣١ ـ أن التباين بين العالم والجاهل مستقِرٌّ في الفطر والعقول، حتى قال بعض الفقهاء باعتبار العلم في الكفاءة في النكاح.

٣٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨].

٣٣ ـ فضل العقل، وأنه يوجب التفكُّر والتذكُّر.

٣٤ ـ أن العقول الصحيحة تقتضي التفكُّر والتذكُّر.

ولما بيَّن تعالى نفي المساواة بين من يعلم ومن لا يعلم أمر نبيَّه ﷺ أن يخاطب المؤمنين مبلغًا عن ربه قوله: (يا عبادي)؛ **فقال سبحانه:**

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

▨ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ أمرَ الله عباده المؤمنين بتقواه، ووعْدَه للمحسنين بالعاقبة الحسنة، والدعوةَ إلى الهجرة، ووعْدَ الصابرين بالأجر الكثير، وأمْرَ الله نبيَّه ﷺ بإعلان التوحيد، وأن الله أمره بالإخلاص في الدين، وأن يكون من المسلمين، وأمْرَ الله نبيَّه ﷺ أن يعلن خوفه إن عصى ربَّه العذاب الأليم.

▨ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾؛ أي: قل ـ أيها الرسول ـ مبلِّغًا عن ربك قوله: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: الذين آمنوا بي وصدَّقوا رسولي واتبعوه، وأصل ﴿عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧] عبادي، حُذفت الياء في جميع القراءات العشر، وهو استعمال معروف في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم، فيجوز حذف هذه الياء وإثباتها، كما جاء ذلك في آيات أخرى، وهو من التنويع في الكلام؛ فمن إثبات الياء قوله تعالى في هذه السورة: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣].

وأضاف اللهُ العباد إلى نفسه المقدسة تشريفًا لهم؛ لأن هذه العبودية

هي الخاصة ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: دوموا على تقواه بفعل أوامره واجتناب مناهيه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ هذا مبتدأ ﴿حَسَنَةٌ﴾ خبره؛ أي: للذين أحسنوا العمل بطاعة الله، وأحسنوا إلى عباده بأنواع الإحسان ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ أي: ثواب عظيم في الدنيا بالتأييد والرزق والنصر والتوفيق، وفي الآخرة بالجنة التي عرضها السماوات والأرض.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلقًا بـ ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ أي: ثوابهم حسنة في الدنيا، والأول أظهر؛ لتشمل الحسنةُ حسنةَ الدنيا والآخرة، ومعلوم أن إحسان المحسنين إنما يكون في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾؛ أي: فسيحة، فهاجروا من بلد الكفر إلى أرض الإسلام، ولا عذر لكم في الإقامة ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم﴾؛ أي: إنما يعطَى الصابرون ثوابهم يوم القيامة على صبرهم في طاعة الله، وعن معصيته تعالى، وعلى صبرهم على أقداره تعالى في مفارقة الأهل والأوطان ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: بغير حصر، بل ثوابهم أكثر من أن يحصى بعدد أو وزن.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا له تعلق بما جاء في أول السورة من قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ فإن الله تعالى لما أمر نبيَّه ﷺ أن يعبد الله بإخلاص، أمرَه بعد ذلك أن يعلن هذا الأمر، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: أمرني ربي أن أعبده مخلصًا له العبادة من شوائب الشرك.

قوله سبحانه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: وقل لهم - أيها الرسول - أمرني ربي أن أكون أول من أسلم لله وانقاد له من هذه الأمة ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾؛ أي: عصيت أمره تعالى ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وعظمة ذلك اليوم تعني عظمةَ ما فيه من الأهوال

والشدائد، وفي هذا زجر بالغ عن معصية الله؛ لأن النبي ﷺ إذا كان يخاف عاقبة الذنب، وهو أكرم الخلق على الله، فغيره من باب أولى.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أَمْر الله نبيَّه ﷺ أن يبلغ الناس أمرَهم بالتقوى.

٢ ـ وجوب تقوى الله.

٣ ـ أن التقوى موجَب الإيمان بالله.

٤ ـ إثبات العبودية الخاصة.

٥ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

٦ ـ الترغيب في إحسان العمل في هذه الدنيا.

٧ ـ حسن عاقبة المحسنين في الدنيا والآخرة.

٨ ـ أن من الجزاء ما يعجَّل في الدنيا، خيرًا كان أو شرًّا.

٩ ـ الترغيب في الهجرة.

١٠ ـ أنه لا عذر للمتخلف عنها.

١١ ـ أن الأرض لله تعالى.

١٢ ـ حاجة المهاجر إلى الصبر على مشاق الهجرة.

١٣ ـ الترغيب في الصبر.

١٤ ـ وعد الصابرين بأجر كثير بلا حدود.

١٥ ـ أن من كرم الله أن سمَّى ثوابه للعاملين أجرًا.

١٦ ـ أن النبي ﷺ عبدٌ مأمور.

١٧ ـ أَمْر الله نبيَّه بعبادة الله والإخلاص في الدين، وأن يكون من المسلمين، وهو أسوة أمته في هذا كلِّه.

١٨ ـ أَمْر الله نبيَّه ﷺ أن يخبر بأمر الله له بعبادته وإخلاص الدين له.

١٩ ـ أن من لم يُخلِص في عبادة الله لم يمتثل أمر الله، فلا يكون عمله مقبولًا عند الله.

٢٠ ـ الردَّ على الملاحدة من الصوفية القائلين بسقوط العمل عن العارف، وجْهُ ذلك: أن العبادة لم تسقط عن النبي ﷺ، فكيف بمن دونه؟!

٢١ ـ أَمْر الله نبيَّه ﷺ أن يخبر بخوف عذاب الله إن عصاه.

٢٢ ـ أن الأمر للوجوب؛ لأن مخالفة الأمر هي المعصية الموجبة للعذاب.

٢٣ ـ الرد على الصوفية الذين يقولون: إنهم لا يعبدون الله خوفًا ولا رجاء، بل بالحب، زعموا.

٢٤ ـ إثبات البعث والجزاء.

٢٥ ـ أن يوم القيامة يوم عظيم؛ لِما فيه من الأهوال والأخطار، وتقلُّب القلوب والأبصار.

ولما ذكر تعالى أَمْر النبي ﷺ بأن يخبر قومه بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فيها، أمره أن يخبرهم بأنه امتثل الأمر وعبد الله وأخلص له الدين، **فقال سبحانه:**

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمنَّت الآياتُ أَمْرَ الله نبيَّه ﷺ أن يخبر بامتثاله أَمْرَ ربه أن يعبده مخلصًا له الدين، ويهددَ المشركين في عبادتهم ما يعبدون بأهوائهم، وإخبارَهم أنهم الخاسرون لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك هو الخسران المبين، وأنهم يعذَّبون في النار يوم القيامة من فوقهم ومن تحتهم، وأن ذلك تخويفٌ من الله لعباده، وذلك مما يوجب تقواه تعالى، لذلك أمر الله عباده بتقواه.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿قُلِ﴾ أيها الرسول ﴿ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾؛ أي: لا أعبد غيرَه تعالى، فتقديم المفعول يفيد الاختصاص ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾؛ أي: مخلصًا له العبادة من شوائب الشرك، وهذه الآية ليست تكرارًا للآية المتقدمة.

قوله سبحانه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم﴾؛ أي: فاعبدوا الذي شئتم من الأوثان وغيرها ﴿مِّن دُونِهِۦۗ﴾؛ أي: مَن سوى الله ﷻ، وفي هذا تهديد لهم وتحقير، يعني أنكم لن تضروني ولا أبالي بكم ﴿قُلۡ﴾ أيها الرسول

لهم ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ كلَّ الخسران، وخبر (إن) هو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: هم الذين خسروا أنفسهم بالخلود في النار، فتسبَّبوا لأنفسهم بالعذاب، وخسروا أهليهم بما حيل بينهم، فلا يلتقون بهم حتى في النار، خلافًا للمؤمنين؛ فإن الله يُلحِق بهم الذرية، ولو كان عملهم دون عمل آبائهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

قوله تعالى: ﴿أَلَا﴾ حرف توكيد وتنبيه لما يأتي بعده لأهميته ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الخسران المذكور ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: البيِّن الواضح الذي لا يخفى على أحد، ولا خسرانَ أعظمُ منه.

قوله سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ جمع ظُلَّة، وهي في الأصل كل ما يظل الإنسان من فوقه، والمراد طبقات من النار ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾؛ أي: طبقات مثلها، والمراد: أن النار محيطة بهم من جميع الجهات، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: العذاب الموصوف ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾؛ أي: يخوِّف اللهُ به عباده المؤمنين؛ ليجتنبوا ما يوقعهم في ذلك العذاب من المعاصي ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾؛ أي: فاتقوني بامتثال الأوامر واجتناب المناهي، وفي ندائه تعالى للمؤمنين وإضافتهم إليه تعالى تشريف لهم.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ إعلان التوحيد عند المشركين، وعدم المبالاة بخلافهم.

٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

٣ ـ أن الرسول ﷺ ممتثل ما أمره اللهُ به من العبادة وإخلاص الدين، وهو ﷺ أفضلُ العابدين المخلصين.

٤ ـ أن النبي ﷺ مكلَّف يرجو رحمة الله ويخاف عذابه، كسائر المؤمنين.

٥ ـ تهديد المشركين في عبادتهم لغير الله بالخسران المبين.

٦ ـ أن للعبد مشيئة.

٧ ـ أن أهل الإنسان يُعْدَلون بنفسه.

٨ ـ أن أعظم خسران هو دخول النار.

٩ ـ أن الشرك سبب أعظم خسران.

١٠ ـ أن المفرِّط في طاعة الله هو الخاسر حقيقة.

١١ ـ صفة عذاب الكفار في النار، ظُلَل من فوقهم، وظُلَل من تحتهم من النار.

١٢ ـ أن عذاب النار أغلظ من كل عذاب.

١٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥].

١٤ ـ أن من حكمة الله في ذكره لحال أهل النار تخويفَ العباد.

١٥ ـ أن الخوف من عذاب الله مطلبٌ شرعيٌّ، خلافًا لجهَلة الصوفية.

١٦ ـ وجوب الخوف من عذاب الله.

١٧ ـ وجوب تقوى الله.

١٨ ـ أن تقوى الله أعظم وسيلة للنجاة من عذاب الله.

١٩ ـ إثبات العبودية الخاصة.

ثم أتبع تعالى الوعيد بالوعد، **فقال سبحانه:**

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ بأن البشرى للذين اجتنبوا عبادة الطاغوت وأنابوا إلى الله، وأمْرَ الله نبيَّه ﷺ أن يبشر الذين يستمعون القرآن فيتبعون أحسنه بأداء الفرائض والمنافسة في فضائل الأعمال، وأن هؤلاء هم الذين هدى الله، وهم ذوو العقول الزكيَّة الواعية، والإخبارَ بأنه لا يستوي هؤلاء الموصوفون بالتوحيد والإنابة والأشقياء الذين يلقون في النار، والإخبارَ بأن الرسول ﷺ لا يملك أن ينقذ من حقت عليه كلمة العذاب، فكما لا يملك هدايتهم لا يملك إنقاذهم من النار إذا دخلوها، والإخبارَ بجزاء الذين اتقوا ربهم أن لهم غرفًا من فوقها غرف تجري من تحتها الأنهار، وأن ذلك وعدٌ من الله للمتقين، والله لا يخلف الميعاد.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾؛ أي: والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت، وهو كلُّ ما عُبد من دون الله من الشياطين والأوثان، وغيرها من الجمادات والأموات، ومن يرضى بعبادته ﴿وَأَنَابُوٓا

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: رجعوا إلى ربهم بالتوبة والعبادة ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ أي: لهم البشرى في الدنيا بالذكر الحسن والتوفيق، وفي القبر بالتثبيت، وفي الآخرة بالجنة التي عرضها السماوات والأرض ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾؛ أي: فبشِّر عبادي المتقين ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾؛ أي: مطلق القول وهو الكلام، فـ (أل) على هذا للجنس ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾؛ أي: يتَّبعون كلَّ ما يدل على الخير والصلاح، وأعظمه كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

وقال بعض المفسِّرين: المراد بالقول: القرآن، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، فعلى هذا تكون (أل) للعهد الذهني ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾؛ أي: أفضلَ ما أُمِر المسلم به وهو الفرائض والمستحبات، ويجمعهما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج: ٧٧]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ أي: المتصفون بتلك الصفات الحميدة ـ دون غيرهم ـ ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وفقهم اللهُ لقبول الحق واتباعه ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: وأولئك هم أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أفمن وجبَت عليه ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ وهي كلمته تعالى أن الكافر معذَّب في النار، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦]، والهمزة في ﴿أَفَمَنْ﴾ للاستفهام الإنكاري؛ لنفي التسوية بين مَن حقَّت عليه كلمة العذاب ومَن هداه الله و﴿مَنْ﴾ موصولة في محل رفع مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: كمَن هداه الله فنجا.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: أفأنت ـ أيها الرسول ـ تقدر على إنقاذه، وضع ﴿مَن﴾ موضع الضمير، فلم يقل: أفأنت تنقذه،

شهادة عليه بدخول النار، والاستفهام ليس تكرارًا للأول، وإنما هو استفهام إنكاريٌّ آخر لنفي قدرة النبي ﷺ على إنقاذه.

ثم ذكر تعالى جزاء المتقين، فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ ﴿لَٰكِنِ﴾ حرف استدراك يفيد تأكيد ما قبله وتحقيق ما بعده؛ أي: تأكيد وعيد المشركين، وتحقيق وعد المتقين. المعنى: لكن المؤمنون الذين اتقوا ربهم بفعل أوامره واجتناب مناهيه ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: في الجنة ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾؛ أي: بعضُها فوق بعض، أجمل ما تكون في علوها وارتفاعها ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾؛ أي: بناءً محكمًا، وهذا تأكيد للمعنى؛ أي: هي غُرَف حقيقة لا مجازًا، كما يقال: رأى الشيء بعينيه، وطار البازي بجناحيه، وفي ذكر هذه الغرف مقابلةٌ لما ورد من ذكر الظُّلل في وعيد المشركين.

قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: تجري من تحت هاتيك الغرف الأنهار، وفي ذلك كمال متعتهم في مجالسهم في هذه الغرف إذ الأنهار جارية من تحتهم ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكِّد لفعل مفهوم من الكلام؛ أي: وعدهم اللهُ ذلك ـ أي الغُرَف ـ وعْدًا ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾؛ أي: والله لا يخلف الوعد الذي وعده، فهو تعالى أصدق من وعد، وأكرم من وفَى.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الشرك عبادة غير الله، وأن كلَّ ما عُبد من دون الله فهو طاغوت.

٢ ـ أن التوحيد لا يتم إلا بترك الشرك.

٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

٤ ـ أن الطاغوت يؤنث، كما في الآية، ويذكَّر كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠].

٥ ـ أن الإنابة إلى الله من شأن أهل التوحيد.

٦ ـ أن البشرى من الله للموحدين المنيبين.

٧ ـ أَمْر الله نبيَّه ﷺ أن يبلِّغ هذه البشرى لعباد الله.

٨ ـ أن المشرك لا بشرى له.

٩ ـ إثبات العبودية الخاصة.

١٠ ـ أن من عَمَل المؤمنين الموحدين: استماعَ القرآن، واتباعَ أحسن ما فيه من الأعمال والأخلاق، باتباع الفرائض، والمنافسة في الفضائل.

١١ ـ الحثُّ على استماع القرآن واتباع أحسنه.

١٢ ـ إثبات الهداية الخاصة.

١٣ ـ ذكر ما يتوقف عليه الاهتداء من الفاعل والقابل؛ فالله هو الهادي، والعقل السليم هو القابل؛ دلَّ على الأول قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾، وعلى الثاني: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

١٤ ـ الرد على القدرية في قولهم: إن الله لا يقدر على أفعال العباد.

١٥ ـ أن مَن هذه صفته فهم مهديُّون من الله، وهم ذوو العقول الراجحة.

١٦ ـ أن المتقين المتبعين لكتاب الله هم أولو العقول على الحقيقة؛ لقوله: ﴿هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

١٧ ـ الثناء عليهم بحُسْن نظرهم واختيارهم.

١٨ ـ أنه لا تلازم بين الذكاء والعقل، والمحمودُ شرعًا هو العقل.

١٩ ـ أن كل عمل صالح فهو بهداية الله.

٢٠ ـ أنه لا يستوي من هداه الله، ومَن حقَّت عليه كلمة العذاب.

٢١ ـ أن مَن حقَّت عليه كلمة العذاب فهو في النار.

٢٢ ـ إثبات النار.

٢٣ ـ أن الناس فريقان: مهديٌّ عاقل، وضالٌّ سفيه.

٢٤ ـ إثبات الكلمات الكونية؛ لقوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾.

٢٥ ـ أن الرسول ﷺ لا يملك أن يُخرج أحدًا من النار، ممن استوجب الخلود فيها، لكن ينقذ غيرَهم من العصاة بالشفاعة إذا أذن اللهُ له بالشفاعة.

٢٦ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

٢٧ ـ أن المتقين في الجنة في غرف.

٢٨ ـ أن التقوى أعظم سبب لدخول الجنة.

٢٩ ـ أن للتقوى سببين: سابقٌ وهو الهداية، ولاحِقٌ وهو الوعد بالثواب، وكلاهما مقتضى الربوبية الخاصة.

٣٠ ـ فضل الغُرَف العالية على ما دونها.

٣١ ـ أن غُرَف الجنة مبنيَّة، والباني لها هو الله، أو الملائكة بأمره تعالى.

٣٢ ـ أن مساكن الجنة غُرَفٌ بعضها فوق بعض.

٣٣ ـ أن من أنواع النعيم: أن أنهار الجنة تجري من تحت مساكن أهل الجنة.

٣٤ ـ أن ثواب المتقين وعدٌ من الله مُحقَّق.

٣٥ ـ أن الله لا يخلف الميعاد؛ لكمال صدقه ووفائه، وكمال قوته.

ولما ذكر اللهُ الدار الآخرة وما فيها من الثواب والعقاب، ذكر مثل الحياة الدنيا وما تؤول إليه من الفناء؛ **فقال سبحانه:**

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان تذكيرَ العباد بما علموه من نعمة الله العظيمة، وهي إنزال الغيث الذي يودعه اللهُ في الأرض مخزنًا للينابيع، وسببًا في نبات الزرع الذي يأكل منه الناس والأنعام، مختلفًا ألوانه، ثم يجعله اللهُ بعد الخضرة والنضارة حطامًا، وذلك كلُّه من آيات الله التي يتذكر بها أولو الألباب، ثم ينبِّه تعالى إلى التباين بين مَن شرح الله صدره، ومَن كان معرضًا غافلًا قاسي القلب؛ فإنهم في ضلال مبين.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب عامٌّ لكل قارئ وسامع؛ ليتعظ ويعتبر، والرؤية بصرية وعلمية، والاستفهام للتقرير؛ ؛ أي: قد رأيت وعلمت - أيها الرائي - ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: العُلوِّ ﴿مَاءً﴾ وهو المطر ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿يَنَابِيعَ﴾ حالٌ مقدَّرة من الضمير المنصوب في (سَلَكه)؛ أي: أدخل الماءَ في الأرض حال كونه ينابيع، والينابيع جمع يَنبُوع، وهي العيون الفوَّارة بالماء ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾؛ أي: ثم يُخرج بهذا الماء زرعًا مختلفًا ألوانه من أحمر وأبيض

وأصفر، وفي هذا الزرع ما يحتاج الناسُ من الغذاء والفاكهة ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾؛ أي: ييبس هذا الزرع ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾؛ أي: زالت خُضرته ونضارته، وعطفه بالفاء؛ لسرعة تغيُّره ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾ اللهُ بعد ذلك ﴿حُطَٰمًا﴾؛ أي: متكسِّرًا هشيمًا تذروه الرياح ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذُكر من إنزال الماء وإخراج الزرع ﴿لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: لموعظة وعبرة لأصحاب العقول السليمة يعتبرون بها، إذْ تنكشف لهم ـ بهذا المثَل ـ حقيقة الحياة الدنيا في سرعة زوالها، وقرب اضمحلالها، فهي زهرة فانية، ونعمة زائلة، أولها عناء وآخرها شقاء، وحلالها حساب وحرامها عذاب، فهل يليق بعاقل أن يركَن إليها فضلًا عن أن يطمئن بها؟! أما الآخرة التي أعدها اللهُ للمتقين فهي الدار الباقية الخالدة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠ ـ ٣١].

ثم ذكَّر اللهُ بنعمته على أهل الإيمان، وتوعَّد أهل الشقاوة والخسران، فقال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾؛ أي: وسَّع اللهُ صدره لقبول الإسلام والقيام بأحكامه ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: فهو على بصيرة وهدى من الله، ولا يخفى ما في ﴿عَلَىٰ﴾ من فائدة الاستعلاء الدَّال على التمكُّن، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥].

والهمزة في ﴿أَفَمَن﴾ للاستفهام الإنكاري، لنفي التسوية بين مَن شرح الله صدره للإسلام، ومَن قسا قلبُه؛ أي: لا يستويان، و(مَن)

موصولة في محل رفع مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: كمَن طبع اللهُ على قلبه، كما يدل عليه ما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾؛ أي: فهلاكٌ وعذابٌ شديدٌ لمن قست قلوبهم ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: عن ذكر الله وهو القرآن، وسمَّاه اللهُ ذكرًا؛ لما فيه من التذكير بالله وأسمائه وصفاته وشرائعه، وبالجزاء في الآخرة.

وضُمِّن الفعل (قست) معنى أعرضت، فعدِّي بـ ﴿مِّن﴾، وجوَّز بعض المفسرين أن تكون ﴿مِّن﴾ للتعليل، ويكون المعنى: قسَت قلوبهم من أجل ذكر الله؛ أي: فإذا سمعوه ـ أي القرآن ـ نفروًا وعتوًا عتوًّا كبيرًا، ولهذا قال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ﴾؛ أي: القاسية قلوبهم ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: في ضلال واضح.

نسأل الله أن يشرح صدورنا للإسلام، ويجعلنا على نور منه، وأن يُعيذنا من قسوة القلوب وحال الضلال.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تذكير العباد بنعمة الماء النازل من السماء غيثًا مغيثًا للعباد؛ للسقيا والتطهير.

٢ ـ أن الينابيع التي يستنبطها الناسُ من جوف الأرض أصلها الماء النازل من السماء.

٣ ـ أن الغيث هو السبب لكثير من أرزاق العباد، ممَّا يكون لهم قوتًا، ولدوابهم علفًا، سواء أكان لهم فيه تسبُّبٌ أم لم يكن.

٤ ـ كمال قدرة الله في تدبير هذا الوجود، ومن ذلك: إنزال الغيث، وإخراج الزرع.

٥ ـ الردُّ على الطبائعيين الجاحدين لربوبية الله وأنه المدبِّر لهذا الوجود.

٦ ـ إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾، وأن الله يفعل بها ما شاء، وهو خالقها وخالق المسبَّبات.

٧ ـ أن الأسباب لا تستقل بالتأثير، بل الله خالقها وخالق مسبَّباتها.

٨ ـ أن من آيات الله الدالة على قدرته: اختلافَ ألوان الزرع والثمار.

٩ ـ أن من آيات الله: تبدُّلَ أحوال الحياة الدنيا.

١٠ ـ ضرب المثل لذلك بالزرع الذي يصير حُطامًا بعد أن كان غضًّا نضرًا بهيجًا.

١١ ـ أن في هذا التبدُّل ذكرى لذوي العقول الحية الزكيَّة.

١٢ ـ الثناء عليهم بما وهبهم الله من العقول.

١٣ ـ إثبات الجعل الكوني.

١٤ ـ أن من معاني السماء: العلو، فيشمل ما فوق المخلوقات، ومنه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦].

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠].

١٦ ـ أن الناس في نظرهم في آيات الله ونِعَمه فريقان:

أ ـ متذكِّر وهو مَن شرح الله صدره للإسلام، وجعله على نور مِن ربه.

ب ـ وغافل قاسي القلب لا يتذكر في آيات الله، ولا يهتدي إلى الحق، فقد أضلَّه الله، فكان في ضلال مبين.

١٧ ـ إثبات الربوبية الخاصَّة وأثرِها بشرح الصدر وتنوير القلب.

١٨ ـ أن المتذكرين والمتفكرين في آيات الله هم أهل العقول الصحيحة.

١٩ ـ استحباب استعمال العقل في التفكر في مخلوقات الله، وهذا من شكر نعمة العقل.

٢٠ ـ أن الهدى والإضلال بيد الله ﷻ.

٢١ ـ وجوب الإيمان بأن الهدى من الله؛ فيطلب العبدُ الهدى من الله، ولا يعجب بنفسه.

٢٢ ـ الرد على القدرية.

٢٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

٢٤ ـ أن سبب الهداية للحق والسعادة: شرحُ الصدر للإسلام.

٢٥ ـ تفاضُل الناس في قبول الحق.

٢٦ ـ أن سبب الضلال والشقاء: قسوة القلب عن ذكر الله.

٢٧ ـ ذمُّ الإعراض عن ذكر الله الذي هو القرآن، والترغيبُ في قبوله والإقبال عليه، تلاوة وتدبُّرًا.

٢٨ ـ أن القلوب قسمان: قاسية وخاشعة.

٢٩ ـ الوعيد الشديد لذوي القلوب القاسية.

٣٠ ـ أن الضلال يتفاوت.

ولما ذكر اللهُ الإنزال الكوني، وهو إنزال الماء وآثاره في الأرض وفي القلوب، ذكر الإنزال الشرعي، وهو إنزال القرآن، وتأثيره على القلوب والجلود؛ **فقال سبحانه:**

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ بإنزال الكتاب العظيم بوصفه مثاني ومتشابه، تقشعر منه جلود المؤمنين؛ لما فيه من دلائل عظمته تعالى وكبريائه وسلطانه، وذكر أسمائه وصفاته، وما فيه من الوعد والوعيد المؤثِّر ترغيبًا وترهيبًا، ثم تلين جلود المؤمنين وقلوبهم؛ لِما ذكر فيه من عفوه تعالى، ورحمته لعباده، ومغفرته لذنوبهم، ومع ذلك كان هذا القرآن هدى يهدي به الله مَن يشاء مِن عباده، ومَن يضلله عنه فما له من هاد.

وتضمَّنت الإخبارَ بأنه لا يستوي من هداه الله، فكان أهلًا لرحمة الله وكرامته، ومَن أضلَّه اللهُ فكان أهلًا للعذاب الشديد، حتى إنه يتقي بوجهه سوء العذاب، ومع ذلك يوبَّخ بأن ما حلَّ به ثمرةُ عمله، ثم تضمَّنت تهديد كفار قريش ومَن معهم بجريان سنته تعالى في الماضين حين كذَّبوا

فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، فأذاقهم اللهُ الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر، لكنهم لا يعلمون.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وهو القرآن المعجز بمعانيه ونظمه، وما اشتمل عليه من القصص والشرائع والأحكام، فهو أحسن الحديث في لفظه ومعناه ﴿كِتَابًا﴾ بدل من ﴿أَحْسَنَ﴾ أو حال منه، وسمِّي القرآن كتابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي بأيدي الملائكة وفي المصاحف ﴿مُتَشَابِهًا﴾؛ أي: يُشبه بعضه بعضًا في فصاحته وبلاغته، وصحة معانيه وأحكامه، ووعده ووعيده، ويصدِّق بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض، فإذا أَمَر بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر؛ بل يأمُر به أو بنظيره أو بملزوماته؛ وإذا نهى عن شيء لم يأمُر به في موضع آخر، بل ينهى عنه أو عن نظيره أو عن ملزوماته، فهو ليس كالكلام المختلف الذي ينقض بعضه بعضًا.

قوله: ﴿مَّثَانِيَ﴾ صفة أخرى للكتاب، جمع (مُثَنًّى) بمعنى مردَّد ومكرَّر؛ أي: تُكرَّر فيه القصص والأحكام، والمواعظ والأوامر والنواهي، كما يُكرَّر بالتلاوة ولا يُملُّ، وهذا من وجوه إعجازه ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ صفة أخرى للكتاب؛ أي: تأخذ تاليه وسامعَه قُشَعْرِيرة في جلده من خشية الله عند آيات الوعيد والتهديد، فهي خشية مع علم بعظمة الخالق ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: ثم تطمئن جلودهم وقلوبهم وتسكن إلى القرآن؛ لزوال الخوف من القلوب، وحلول الرجاء محله، وذلك إذا قرؤوا آيات الرحمة والوعد، فحينئذ يسكن روعُهم، وتطمئن قلوبُهم، وأسند ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ إلى الجلود فقط، و﴿تَلِينُ﴾ إلى الجلود والقلوب معًا؛ لأن

الخشية هناك تقوم مقام ذكر القلوب؛ لأن الخوف محلُّه القلب خاصَّة.

ولما وصف تعالى القرآن بهذه الصفات قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الكتابُ العظيمُ الموصوفُ بهذه الصفات ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: هدايةُ الله ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ الله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه من عباده فيوفِّقهم للإيمان به، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ أي: ومن يُضلَّه اللهُ فما له من هاد يهديه؛ لخِذلان الله له، ولا راد لأمره تعالى، ولا معقِّب لحكمه.

ثم بيَّن حال الضال والمهتدي في الآخرة؛ فقال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: هل من يتقي بوجهه ـ الذي هو أشرف أعضائه ـ العذابَ السَّيِّئ يوم القيامة، والهمزة في ﴿أَفَمَن﴾ للاستفهام الإنكاري؛ لنفي التسوية بين المعذَّبين في النار والناجين منها و(مَن) موصولة في محل رفع مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: كمَن ينعَّم في الجنان؛ أي: فلا يستويان ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: وقال خزنةُ النار للمشركين المكذِّبين إهانة لهم وتوبيخًا: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾؛ أي: ذوقوا جزاء ما كسبتم في الدنيا من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من قبل كفار مكة، كذَّبوا أنبياءهم ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: من جهة لا تخطر لهم على بال، فبيناهم آمنون إذ فجأهم العذاب، وهو أوجع ما يكون حينئذٍ ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾؛ أي: الذُّل والصَّغار والهوان ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: في الحياة العاجلة ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾؛ أي: أشدُّ مما عذِّبوا في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف؛ أي: لو كانوا يعلمون أنَّ عذاب الآخرة أشدُّ لآمنوا وأطاعوا الرسول، ولكنهم لا يعلمون وأصروا على الكفر.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن هذا القرآن أحسن حديث.

٢ ـ أنه أفضل الكتب المنزَّلة من الله.

٣ ـ أن القرآن يوصف بأنه حديث؛ لأن الله يُحْدِثه بمشيئته تعالى.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢].

٥ ـ أن القرآن يسمَّى كتابًا.

٦ ـ أن القرآن متشابه.

٧ ـ أن القرآن مثانٍ.

٨ ـ أن في القرآن من أسباب الخوف ما تقشعرُّ منه جلود المؤمنين به الذين يخشون ربهم بالغيب.

٩ ـ فضل خشية الله.

١٠ ـ إثبات الربوبية الخاصَّة؛ لقوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

١١ ـ أن في القرآن من الوعد ما هو بشرى للمؤمنين، يسكِّن روعَهم، ويقوِّي رجاءَهم.

١٢ ـ تأثر من يخشى الله بالقرآن ظاهرًا وباطنًا.

١٣ ـ أن القرآن سببٌ لمن شاء الله أن يهديه.

١٤ ـ أن من أضلَّه الله فلا يقدر أحد على هدايته.

١٥ ـ إثبات الأسباب، وأنَّ الله يفعل بها؛ لقوله: ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾.

١٦ ـ التباين العظيم يوم القيامة بين من هداه الله فاتَّبع هداه، ومن أضلَّه فاتبع هواه.

١٧ ـ الرد على القدرية في قولهم: إن العبد هو المهتدي بنفسه.

١٨ ـ إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله: ﴿يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

١٩ ـ أن اسم (الهادي) يطلق على كلٍّ من دعا إلى هدى، وقد يطلق على من دعا إلى ضلال.

٢٠ ـ الوصف المرعب لعذاب الضالين الظالمين.

٢١ ـ إثبات القيامة والبعث والجزاء.

٢٢ ـ أن من أساليب القرآن: عدم ذكر فاعل القول؛ ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٣ ـ وصف الكفار بالظلم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

٢٤ ـ الجمع للكافر بين العذاب الحسِّي بالنار، والمعنوي بالتوبيخ؛ ﴿ذُوقُوا۟﴾.

٢٥ ـ إثبات الأسباب، وإطلاق اسم السَّبب على المسبَّب؛ لقوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

٢٦ ـ أن سُنَّة الله واحدة في تعذيب المكذبين الظالمين في الدنيا.

٢٧ ـ مكر الله بهم.

٢٨ ـ وجوب الحذر من عذاب الله ومكره.

٢٩ ـ أن الله يجمع لهم بين خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وهو أكبر من عذاب الدنيا.

٣٠ ـ جهل المكذبين بما أعد اللهُ لهم من العذاب في الآخرة.

٣١ ـ أن العلم بما عند الله من العذاب يَزَعُ عن فعل الكفر والمعاصي.

ولما ذكر اللهُ إنزال القرآن وحُسْنَه وما تضمَّنه من الهدى، أخبر ببعض ذلك وهو ضرب الأمثال، وأكَّد مدحه للكتاب بأنه قرآنٌ عربيٌّ؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ إخبارَ الله بمنَّته العظيمة على عباده بضرب الأمثال في هذا القرآن من أنواع الأمثال؛ لبيان الحق من الباطل، وهداية الخلق إلى التي هي أقوم؛ لعلهم يتذكرون ما به سعادتهم ونجاتهم، وتضمَّنت التنويهَ بعربية القرآن، وسلامته من العوج في ألفاظه ومعانيه وأحكامه، وذلك ليتقي العبادُ ربَّهم، ثم ذكر تعالى مثَلًا من هذه الأمثال ضربه للموحد والمشرك؛ فالموحد كالعبد لسيِّد واحد، يمتثل أوامره ويقوم بمراده، فسيِّدُه راض عنه، والمشرك كالعبد لعدد من السادة مختلفين في مناداتهم متنازعين، فالعبد في شقاء، لا يدري مَن ينفِّذ أمره منهم ويحقق مراده، وكلُّهم ساخط، وهو في حيرة من أمره. هل يستوي العبدان؟ لا، كذلك لا يستوي الموحد والمشرك، ثم ختم المثَلان بإثبات الحمد كلِّه لله، وهو المستحق لذلك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ثم خُتمت الآياتُ بذكر ما ينتهي إليه أمر المختصمين من الموحدين والمشركين، وهو الموت، ثم اللقاء عند الله فيحكم بينهم، ويصير كلٌّ إلى عاقبة عمله.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: ذكَرنا للناس أمثالًا واضحة من جميع أنواع الأمثال في هذا القرآن العظيم؛ ليتبيّن لهم الحقُّ ويتبعوه، والمثَل هو الصفة العجيبة الواضحة تذكر لبيان ما يشبهها، ولا بد أن يتضمن المثلُ مشبَّهًا ومشبَّهًا به، وضرب المثَل هو ذِكرُه ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لعلهم يتعظون ويعتبرون؛ فإن الأمثال والتشبيهات طُرُق تتجلَّى فيها المعاني المحتجبة للأفهام؛ فيبرز المعقولُ في صورة المحسوس.

قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا﴾ حال مؤكِّدة وموطئة؛ مؤكدة للقرآن وموطئة لـ ﴿عَرَبِيًّا﴾، و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال ثانية؛ أي: جعلناه قرآنًا عربيًّا؛ أي: بلسان عربيٍّ مبين ليسهل عليهم حفظه وفهمه، واللغة العربية هي أشرف اللغات وأعلاها خصائص وفصاحة، وحسن أداء للمعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة، مع سهولة جريها على الألسنة، وسرعة حفظها، وجمال وقعها في الأسماع، فلا جرم أن ينزل القرآنُ بهذا اللغة الشريفة ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ حال أخرى، والعِوج - بكسر العين - يكون في المعاني، وبفتحها في الأعيان، تقول: في دينه عِوج، وفي العصا عَوج؛ أي: ليس في القرآن اختلاف ولا تناقض ولا لَبْس، بل هو بيِّن المعاني، و﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أبلغ في نفي العوج مما لو قيل: غير معوجٍّ؛ فكأنه قال: ليس فيه شيء من العوج أصلًا ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: لعلهم يتقون الله بفعل الأوامر واجتناب المحرمات.

ثم ضرب اللهُ مثلًا لقبح الشرك وضلال المشركين، فقال سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾؛ أي: مثَلًا للرجل المشرك ﴿رَّجُلًا﴾؛ أي: عبدًا ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾؛ أي: متنازعون فيه دائمًا كلٌّ يدَّعيه لنفسه، فالعبد في

حيرة واضطراب ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾؛ أي: وضرب اللهُ مثلًا للموحِّد عبدًا خالصَ الملكية لرجل واحد لا ينازعه فيه أحد ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؛ أي: لا يستوي هذان العبدان، فالاستفهام إنكاري، و﴿مَثَلًا﴾ تمييز محوَّلٌ عن الفاعل، فالمعنى: لا يستوي حالاهما.

فهذا تمثيل للمشرك الذي يعبد آلهة متعددة، والمؤمن الذي يعبد إلهًا واحدًا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناءٌ من الله على نفسه المقدسة، وتعليم لنا أن نقول ذلك؛ أي: الثناء التام على الله تعالى؛ لكمال صفاته، فهو الإله الحق المستحق للعبادة، ولكمال إنعامه، ومن ذلك: إنزال القرآن العظيم، وضرب الأمثال فيه، فينبغي للمؤمن إذا قرأ أمثال القرآن أن يقف عندها، ويتدبرها، ويجمع لها قلبه وفكره؛ ليخرج منها بأجلِّ عِظة، وأعظم عبرة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أهل العلم هم المنتفعون بهذه الأمثال التي يضربها الله لعباده، والمختصُّون بعلمها، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وفي القرآن بضعة وأربعون مثلًا، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول: لست من العالمين»[1]، وما أقل المنتفعين بهذه الأمثال! ولهذا قال سبحانه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: بل أكثر الناس لا يعلمون الحق مع وضوحه وظهور أدلته.

ثم أخبر الله نبيَّه ﷺ مسلِّيًا له بأنه وخصومه جميعًا سيموتون، ويحضرون القيامة، ويختصمون عنده فيحكم بينهم؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾؛ أي: إنكم ستموتون جميعًا لا محالة، وتأكيد الخبر بـ ﴿إِنَّ﴾ للحث على استحضار الموت والعمل لما بعده ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: بعد بعثكم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: بين يدي الله جَلَّ جَلَالُهُ

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/١١٦).

﴿تَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: تتحاكمون ويخاصم بعضُكم بعضًا، فكلٌّ ينطق بحجته، المؤمن مع الكافر، والمظلوم مع الظالم، والنبيُّ مع قومه، فيقول النبيُّ: إني بلَّغت رسالة ربي، ويقول قومه: إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا، واتبعنا آباءنا، وهي حجج داحضة، والآية عامة، كما ذهب إليه ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا يشكل على الآية قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٨]؛ لأن القيامة مواقفها كثيرة، وأحوالها مختلفة، فمرة يختصمون، وفي حالٍ لا يختصمون.

الفوائد والأحكام:

١ ـ ذِكر الله نفسَه بضمير الجمع الدَّال على العظمة.

٢ ـ أن من طرق البيان في القرآن: ضربَ الأمثال.

٣ ـ أن في القرآن أنواعَ الأمثال.

٤ ـ الحكمة من ضرب الأمثال، وهي التذكُّر.

٥ ـ أن ضرب المثل من قبيل القياس، ففي الآية إثبات القياس.

٦ ـ أن من طرق التعليم الحسنة: ضربَ الأمثال.

٧ ـ التعليل في أفعال الله تعالى؛ لقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٨ ـ الردُّ على الجهمية في نفيهم لحكمة الله.

٩ ـ رحمة الله بالعباد بأن أنزل لهم القرآن المتضمِّن للهدى والبيان.

١٠ ـ أن القرآن نزل بلسان عربيٍّ.

١١ ـ فضل اللغة العربية؛ لنزول القرآن بها.

١٢ ـ حفظ اللغة العربية لوعد الله بحفظ القرآن، وهي تابعة له.

١٣ ـ تنزيه القرآن عن كل عيب.

١٤ ـ أن العيب فيما خالف القرآن من كلام الناس.

١٥ ـ أن القرآن أحسنُ الحديث.

١٦ ـ الحكمة من إنزال القرآن على ما هو عليه من البيان، وهي حصول التقوى.

١٧ ـ أن من أسباب التقوى: فهمَ معاني القرآن.

١٨ ـ إيضاح العام بذكر بعض أفراده؛ فإنه تعالى لما قال: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ قال بعده: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾.

١٩ ـ ضرْبُ المثل للموحِّد والمشرك بعبدٍ لرجل، وعبدٍ لرجال مختلفين.

٢٠ ـ أنهما لا يستويان؛ الأول في راحة، والثاني في شقاء.

٢١ ـ حُسْنُ التوحيد وقُبحُ الشرك.

٢٢ ـ جواز الاشتراك في العبد الواحد.

٢٣ ـ استحقاقُ اللهِ الحمدَ كلَّه.

٢٤ ـ أن أكثر الناس لا يعلمون ما يستحقُّه الله من الحمد والتعظيم.

٢٥ ـ الندبُ إلى العلم، وذمُّ الجهل.

٢٦ ـ إثباتُ الربوبيَّة العامة.

٢٧ ـ أن النبيَّ ﷺ لم يخلَّد.

٢٨ ـ جواز الإخبار عن الرسول ﷺ بأنه ميِّت.

٢٩ ـ الحكم بالموت على جميع الناس بَرِّهم وفاجرِهم.

٣٠ ـ إثبات البعث والقيامة.

٣١ ـ حكمُ الله بين المختصمين فيما اختلفوا فيه.

٣٢ ـ تسليةُ النبي ﷺ برجوع الجميع إلى الله، ثم الحكم بينهم.

٣٣ ـ إثبات عندية المكان؛ لقوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، ويشهد له قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، وقولُه ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة، ليس بين الله وبينه ترجمان**»(١).

(١) رواه البخاري (٦١٧٤) ومسلم (١٠١٦) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

ولما ضرب اللهُ مثلًا للمشركين ذكر بعضًا من قبائحهم، وهو كذبهم على الله وتكذيبهم بالحق؛ **فقال سبحانه:**

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ بأنه لا أحدَ أظلمُ ممن كذَب على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه، والإخبارَ عن مصيره إلى النار، والإخبارَ بالوعد الحسن لمن جاء بالصدق وصدَّق به، والثناء عليهم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاريٌّ بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أظلمُ ممن كذَب على الله بنسبة الشركاء والأولاد إليه تعالى، أو ادَّعى أنه يوحَى إليه، ولم يوح إليه شيء، أو ادَّعى أن الله حرَّم هذا، أو أحلَّ هذا بغير علم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾؛ أي: وكذَّب بالحقِّ حين جاءه، وهو كلُّ ما أنزل إلى الرسول ﷺ من ربِّه، وأعظمُه القرآن، وقدَّم الكذبَ على الله لقبحه.

وقد وردت آياتٌ متضمِّنة لنفي الأظلميَّة عن غير المفتري على الله،

كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] وغيرها.

وليس بين هذه الآيات تعارض؛ لأن الأظلميَّة في كل آية مقيَّدةٌ بالمعنى الذي سيقت فيه، وليست أظلميَّة مطلقة، فالظلم أبواب مختلفة، وكلٌّ موصوف بالأظلميَّة في هذه الآيات وأمثالها هو أظلم الظالمين في بابه؛ فالمنع أنواع، ولا أحدَ من المانعين أظلمُ ممن منع مساجد الله، والكتمان صوره شتَّى، ولا أحد من الكاتمين أظلمُ ممن كتم شهادة عنده من الله، وهكذا يقال في الكذب: إنه أنواع، ولا أحدَ من الكاذبين أظلمُ ممن افترى على الله كذباً. والله أعلم.

ثم ذكر تعالى وعيد أولئك الكاذبين المكذِّبين، فقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: أليس في جهنم مقام للكافرين من الذين كذَبوا على الله، وكذَّبوا بالحق وغيرهم من سائر الكفار، والاستفهام تقريريٌّ؛ أي: بلى لهم مقام ومنزل، وتنكير ﴿مَثْوًى﴾ يدل على فظاعته وسوئه.

ثم عقَّب بوعد الصادقين المصدِّقين؛ ترغيبًا وترهيبًا، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى﴾؛ أي: والذين؛ فهو جنس يراد به العموم، ولهذا أشار إليه بالجمع نظرًا إلى معناه في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾؛ أي: والذين جاؤوا بالحق من الأنبياء والمؤمنين، وسمَّى الحق (صدقا) ثناءً عليه، فالحقُّ عين الصدق ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: جاؤوا بالصدق وهم مصدِّقون به.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: أولئك الصادقون المصدِّقون هم الموصوفون بالتقوى لا غيرهم، وفي الإشارة إليهم بإشارة

البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إعلاءٌ لشأنهم، وتنويه بهم، ولهذا قال في جزائهم: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾؛ أي: لهم ما يحبون في الجنة من النعيم في قربه تعالى، كما قال سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١]، ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الموعودُ العظيم ﴿جَزَآءُ﴾؛ أي: ثواب ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: المتقين السابق ذكرهم، إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير؛ مدحًا لهم بصفة الإحسان، وفيه إشعار بمقتضى هذا الجزاء، وهو الإحسان، فهم أحسنوا في عملهم لله؛ أي: في العبادة، وأحسنوا إلى العباد بصنوف الإحسان.

قوله سبحانه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ اللام في ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ للتعليل؛ أي: وعدهم اللهُ بذلك؛ ليغفر لهم أسوأ أعمالهم، ومَن غفر الأسوأ غفر ما دونه ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ويجزيهم بأحسن أعمالهم وحسَنِها، وهي أعمالهم الصالحة في الدنيا، فيجزيهم عليها بالحسنات، والحسنة عنده تعالى مضاعفة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

وجعل بعض المفسرين ﴿أَحْسَنَ﴾ و﴿أَسْوَأَ﴾ بمعنى الحسَن والسَّيِّء، فتكون أفعل التفضيل ليست على بابها، وهو خلاف ظاهر القرآن.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الظلم يتفاوت.

٢ ـ أن مفتري الكذب على الله والمكذِّبَ بآياته من أظلم الظالمين، بل لا أظلمَ منه مِن المفترين والمكذبين.

٣ ـ أنه كافر، ومصيره إلى جهنم، وهي مثواه، وبئس المصير.

٤ ـ أن الصَّادقين المصدِّقين بالصِّدق هم المتقون المحسنون.

٥ ـ الحثُّ على الصِّدق، ومدحُ الصدق والصادقين.

٦ ـ التحذير من الكذب، وذمُّ الكذَّابين والمكذِّبين.

٧ ـ إقامة الحجة بإرسال الصادقين؛ لقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾.

٨ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة**» الحديث[1].

٩ ـ وجوب التحرِّي في الفتوى لحكم الله.

١٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

١١ ـ وجوب تصديق الصَّادقين.

١٢ ـ ظهور الأدلة على صدق الرسول ﷺ وما جاء به.

١٣ ـ وجوب التصديق على الرسول ﷺ بما جاء به.

١٤ ـ أن تقوى الله تحمل على لزوم الصدق.

١٥ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

١٦ ـ إثبات عندية القُرب؛ لقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

١٧ ـ إثبات الحكمة في أفعال الله؛ لقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

١٨ ـ أن الحسنات تتفاضل، والسيئات تتفاوت.

١٩ ـ أن الخطَرات ليس لها ثواب، ولا عليها عقاب، فهي ليست عملًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

٢٠ ـ جواز الذنوب على الأولياء.

٢١ ـ إثباتُ الجزاءِ وترتيبُه على الأعمال.

٢٢ ـ إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٢٣ ـ أن الله يجمع لهم بين الثواب على أحسن أعمالهم، وتكفير أسوأ أعمالهم، وهي سيئاتهم.

ولما توعَّد اللهُ المفترين عليه المكذبين بآياته، ووعد الصادقين المصدِّقين، أخبر بكفايته لعبده ورسوله الصَّادق المصدُوق ﷺ؛ **فقال سبحانه:**

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن كفاية الله لعبده العبودية الخاصة من نبيٍّ أو وليٍّ، وأن المشركين يُخوِّفونك ـ أيها النبي ـ الذين يدعونهم من دون الله، وأنَّ مَن أضله الله فلا هادي له، ومَن يهده الله فلا مضل له، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأنه تعالى عزيز ذو انتقام، وأن المشركين لو سألتهم: من خلق السماوات والأرض؟ ليقولن: الله، وأن معبوداتهم التي يدعون من دون الله لا تملك شيئًا، فلا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًا، وأنَّ الله هو الكافي لعبده، فعليه التوكل على الله؛ فإنَّه نعم الوكيل.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الاستفهام للتقرير، وهو أقوى في أداء المعنى؛ لأن معناه طلب الإقرار بما هو مستقرٌّ ومسلَّمٌ به

عند المخاطَب، فيجيب بـ (بلى)، أي: اللهُ وحده كافٍ عبده كلَّ ما يُهِمُّه، والمراد بعبده محمد ﷺ، وأضافه إليه؛ تشريفًا له ﷺ، وتحقيقًا لنصرته وسلامته من أعدائه، وفي الآية تسلية للنبي ﷺ، وتقوية لقلبه.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف (عِبَادَه) على الجمع، فيعُمُّ حكم الآية ـ وهو الوعد بالكفاية ـ جميعَ المؤمنين، ثم خاطب اللهُ نبيه ﷺ بطريق الالتفات؛ تأكيدًا لوعده بكفايته، وتحقيرًا لكيد الكافرين ومعبوداتهم؛ فقال سبحانه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: ويُخوِّفُك المشركون ـ أيها الرسول ـ ويتوعدُونك بالأوثان التي اتخذوها آلهة من دون الله، وهذا من سفَههم وضلالهم المبين ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ أي: ومن يصرفْه اللهُ عن قبول الحق فما له من هادٍ يهديه إليه، ودخلت ﴿مِنْ﴾ على ﴿هَادٍ﴾ وهو نكرة لإفادة تنصيص العموم؛ أي: نفيِ وجودِ هادٍ مطلقًا دون الله ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾؛ أي: ومن يوفقْه اللهُ لقبول الحق فلا أحد يستطيع إضلاله ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: قوي لا يغلب ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ فينتقم من أعدائه، وينتصر لأوليائه، ففي الآية وعيد للمشركين، ووعد للمؤمنين.

ثم أقام تعالى الدليلَ على بطلان عبادة الكافرين للأوثان وتفرُّده تعالى بالخلق والتدبير؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، ﴿لَئِنْ﴾ اللام موطئة لجواب قسم مقدَّر قبلها، فهي تؤذن بالقسم المقدَّر وتمهِّد لجوابه بعدُ، و﴿إِنْ﴾ شرطيَّة، وجواب الشرط محذوف لتأخر الشرط، اكتفاءً بجواب القسم، وهو قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، تبعًا للقاعدة النحوية، وهي أنه إذا اجتمع شرط وقسم حُذف جواب المتأخر منهما.

والخطاب في الآية للرسول ﷺ ولغيره، فهو عام؛ أي: ولئن

سألت ـ أيها السائل ـ كفارَ مكة: مَن خلق السماوات والأرض على هذا النظام البديع، والخلق العجيب ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ليقولنَّ خلقهن اللهُ وحده، فالبراهين قائمة على تفرُّده تعالى بالخلق، ولهذا أمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يخاطب المشركين مُبكِّتًا لهم؛ فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾؛ أي: أخبروني، يعني: تفكَّروا وتدبَّروا لتخبروني ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هذه الأصنام التي تعبدونها، وتطلبون منها ما لا يُطلب إلا من الله، وتتقربون إليها بالذبائح والنذور، وعبَّر عن آلهتهم المدَّعاة بـ ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ تهكُّمًا بها، وتسفيهًا لعابديها ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ أي: ببلاء أو مرض أو ضيق في معيشتي ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؛ أي: هل هنَّ مزيلاتُ ضُرِّه، وقدَّم الضُّر لأنَّ دفعه أهم، وإذا عجَزت هذه الأصنام عن دفع الضُّر فهي أعجز عن جلبه ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ من صحة وغنى ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: هل هنَّ قادراتٌ على منع رحمته تعالى عنِّي؟ إنها لا تستطيع شيئًا من ذلك، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، وجرى الكلام على التأنيث في ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾، و﴿مُمْسِكَٰتُ﴾ وفي الضمائر لأن المعبودات أحجار لا تعقل، وجَمْعُ غير العاقل يعامل معاملة الإناث، وفي تأنيثها تحقير لها؛ لأن الأنثى عندهم محتقرة، وتهكم بمن عبدها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: قل لهم ـ أيها الرسول ـ بعد أن تُفحمهم بهذا الكلام: الله ـ وحده ـ يكفيني في كشف الضُّر وجلب الخير، وأمْر الله لنبيه ﷺ بهذا القول يشمل اعتقادَه والإعلانَ به؛ غيظًا للمشركين، وتعليمًا للمسلمين ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ أي: عليه تعالى لا على غيره يعتمدون في جميع أمورهم وأحوالهم، وجملة ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ صالحة أن تكون من مقول القول الذي أُمر به

النبي ﷺ، وأن تكون مستأنفة كالتعليل لما أُمِر النبي ﷺ أن يقوله.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن مِن الأمور اليقينية: كفايةَ الله لعبده، ومَن كفاه الله فلا يقدر أحدٌ على مساءته، أو على مضرَّته.

٢ ـ أن الله يدافع عن عباده المؤمنين.

٣ ـ إثبات العبودية الخاصة.

٤ ـ الحثُّ على صدق العبودية لله بإخلاص الدين له.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، وقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

٧ ـ أن الله يهدي ويضل، فمَن هداه الله فلا مضلَّ له، ومَن أضلَّه فلا هادي له.

٨ ـ أن الهدى من الله؛ فلا يُطلب إلا منه.

٩ ـ أن الهدى من الله أفضلُ نعمة على العبد.

١٠ ـ الردُّ على القدرية.

١١ ـ إثبات اسم الله (العزيز)، وصفة العزة.

١٢ ـ أن الله ذو انتقام من المجرمين.

١٣ ـ تهديد المشركين بعزته وانتقامه تعالى.

١٤ ـ أن الله خالق السماوات والأرض.

١٥ ـ أن المشركين مُقِرُّون بربوبيته سبحانه، وأنه خالق السماوات والأرض.

١٦ ـ تناقضُ المشركين بإقرارهم بربوبيته تعالى، ومع ذلك يشركون به في العبادة.

١٧ ـ أن إقرارهم حجَّةٌ عليهم في شركهم.

١٨ ـ أن الإقرار بالربوبية لا يكفي للدخول في الإسلام.

١٩ ـ تعليم الله لنبيه ﷺ الحجَّة على المشركين.

٢٠ ـ إثبات الإرادة الكونية لله تعالى.

٢١ ـ أن الله هو النافع الضار.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ٢].

٢٣ ـ أن آلهة المشركين لا تجلب نفعًا، ولا تدفع ضرًّا أراده الله بعبده.

٢٤ ـ بطلان آلهة المشركين.

٢٥ ـ أن من الأدلة على بُطلانها: عجزَها.

٢٦ ـ تحقير آلهة المشركين.

٢٧ ـ وجوب التوكل على الله تعالى.

٢٨ ـ أن من موجبات التوكل عليه تعالى: الوعدَ بكفايته تعالى.

٢٩ ـ أن الإيمان بكفايته تعالى يوجب الطمأنينة للعبد، والأمن من كلِّ ما يخافه الناس.

٣٠ ـ وجوب الإيمان بكفايته تعالى لعبده.

٣١ ـ أن ربوبيته تعالى العامة دليل على إلاهيته، وأنه المستحق للعبادة، وأنه الحقيق بالتوكل عليه، وأنه المالك لأزمة الأمور، فبيده الملك وهو على كل شيء قدير.

ولما أقام اللهُ الحجة على المشركين في وجوب إفراده تعالى بالعبادة ونبذ الشرك، أمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يواجههم بالتهديد، **فقال سبحانه:**

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

▨ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ أَمْرَ الله نبيَّه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: حالتكم التي أنتم عليها؛ تهديدًا لهم، وإنِّي عامل بعملي كما تعملون، وأنهم سيعلمون بعد حينٍ مَن يحلُّ عليه عذاب الخزي المقيم، وتضمَّنت الخبرَ من الله بامتنانه على رسوله ﷺ بما أنزل عليه من الكتاب هدى للناس، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلَّ فليس الرسول عليهم بوكيل، فلا يسأل عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩].

▨ التفسير:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ﴾؛ أي: قل ـ أيها الرسول ـ لقومك المكذبين، وأصل ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ياقومي، حُذفت الياء تخفيفًا ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: اعملوا على طريقتكم من الكفر والتكذيب، وهذا أمر تهديد، وليس على ظاهره؛ لأن الرسول لا يأمر بالكفر ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي: إني عامل على طريقتي من الإيمان والدعوة إلى دين الله، كما أمرني

ربي، وحذف متعلَّق ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾، فلم يقل: على مكانتي؛ لإفادة التعميم، ولتذهب النفس في تقديره كلَّ مذهب فيما يغيظهم، ويبطل كيدهم.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ العلم هنا بمعنى المعرفة فينصب مفعولًا واحدًا، وهو قوله ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾؛ أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه العذابُ المخزي الذي يُذله ويهينه في الدنيا، وقد حصل لهم من ذلك ما حصل من الجوع الذي أصاب قريشًا والقتل بالسيف يوم بدر ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: وينزل به عذاب عظيم دائم في الآخرة، وهو أخزى من عذاب الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]، ومدار الآيات على وعيد المشركين، وتسلية سيد المرسلين ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ هذا من تمام تسلية النبي ﷺ وتثبيته، وتذكيره بالنعمة العظمى، وهي إنزال القرآن؛ أي: إنا أنزلنا عليك القرآن لجميع الناس إنزالًا مصحوبًا بالحق مشتملًا عليه؛ فهذا الكتاب العظيم مشتمل على جميع أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، وهذا مما يوجب تصديقَه والعملَ به، وتقدم أن قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يفيد معنيين:

الأول: أن نزوله حقٌّ من الله، وليس مفترى، كما يقول المشركون.

الثاني: أن القرآن مشتملٌ على الحق أخبارُه وشرائعُه.

وعدِّي الإنزال بـ (على) في هذا الموضع، وقد عدِّي بـ (إلى) في أول السورة، ليدل الإنزالُ على معنيين، الأول: أن القرآن نزل من علو. الثاني: الانتهاء إلى الرسول. وقيل: إن هذا من قبيل التفنُّن والتنويع في الكلام.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾؛ أي: فمن اهتدى بالقرآن بالإيمان به، والعمل بما فيه من الشرائع والأحكام ففائدة اهتدائه تعود عليه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾؛ أي: ومن ضلَّ فإنما ضرر ضلاله على نفسه ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: لست ـ أيها الرسول ـ بموكَّل عليهم تحصي أعمالهم، وتحاسبهم عليها؛ إنما أنت نذير، وقد بلَّغت، قال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، والباء في ﴿بِوَكِيلٍ﴾ لتأكيد الخبر المنفي، وفي الآية تسلية أخرى له ﷺ إثر تسليته بأنه منصور عليهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ تعليم الله نبيَّه ﷺ الاحتجاجَ على المشركين ومحاورتَهم.

٢ ـ تهديد المشركين وتخويفهم عذاب الله الذي ينتظرونه.

٣ ـ شجاعة الداعي إلى الله، وعدم اكتراثه بمخالفيه.

٤ ـ تخويف الكافرين عذابَ الله.

٥ ـ منَّة الله على رسوله ﷺ بإنزال القرآن.

٦ ـ الحكمة من إنزال القرآن على النبي ﷺ، وهي هداية الناس إلى ما به سعادتهم.

٧ ـ أن عذاب الله للكفَّار مُخْزٍ لهم في الدنيا والآخرة.

٨ ـ دوام عذاب الكفار في النار.

٩ ـ أن القرآن كلامُ الله منزل غير مخلوق.

١٠ ـ اصطفاء النبي ﷺ بإنزال القرآن عليه.

١١ ـ عموم رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾.

١٢ ـ أن القرآن حجَّة الله على عباده.

١٣ ـ تضمُّن القرآن للحق في أخباره وأحكامه صدقًا وعدلًا.

١٤ ـ أن الناس مع القرآن فريقان: مهتد به، وضالٌّ.

١٥ ـ أن من اهتدى فاهتداؤه لنفسه، ومن أعرض فضلَّ فضرر ذلك على نفسه، ولن يضر الله شيئًا.

١٦ ـ الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾.

١٧ ـ أن وظيفة الرسول ﷺ: الدعوة والبلاغ، وليس مسؤولًا عن هداية الناس، وكذا كلُّ داعٍ من أتباعه، بل الله هو الذي يهدي من يشاء بحكمته وفضله، ويضل من يشاء بحكمته وعدله.

ولما ذكر تعالى أن أمر الهدى والإضلال إليه، وذلك من تصرُّفه في قلوب العباد، ذكر تعالى أنه المتصرف في نفوسهم بالحياة والموت، والنوم واليقظة؛ **فقال سبحانه:**

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ بأن الله هو الذي يتوفى النفوس بالموت أو النوم، وأن الله يُمسك التي قضى عليها الموت، ويُرسل التي توفَّاها بالنوم؛ ليبقى الإنسان حيًّا إلى أجله الذي يموت فيه، ثم نبَّه تعالى على ما في هذا القَدَر من العبرة للمتفكرين، وأنكر تعالى على المشركين اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهو الذي له الشفاعة كلُّها، هذا، ومعبوداتهم لا تملك شيئًا، والله تعالى له ملك السماوات والأرض، فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، وإليه يرجع العباد في يوم المعاد.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ أي: الله - وحده - يقبض الأرواح، يقال: أوفاه حقَّه ووفَّاه؛ أي: أعطاه وافيًا، واستوفى حقَّه وتوفَّاه بمعنى واحد أيضًا؛ أي: قبضه من غير نقصان ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: وقت انقضاء أجلها، وهي الوفاة الكبرى ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾؛ أي:

ويقبض الأرواح التي لم يحكم بموتها لعدم انقضاء أجلها ﴿فِي مَنَامِهَا﴾؛ أي: يقبضها حين تنام، وهي الوفاة الصغرى، تشبيهًا للنائمين بالموتى، فإنك تراهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يحسُّون، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾؛ أي: فيُمسك تعالى الروح التي حكم عليها بالموت، ولا يردها إلى جسدها ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾؛ أي: ويرد الروح التي لم يَحِن أجلها إلى جسدها لتبقى فيها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾؛ أي: إلى وقت معيَّن عنده تعالى، وتلك آياتٌ عظيمة تدعو إلى التفكر، وتعظيم الخالق وإفراده بالعبادة، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ أي: المذكور كلِّه من التوفِّي والإمساك والإرسال ﴿لَآيَاتٍ﴾؛ أي: علامات ودلائل دالة على ربوبيته تعالى، وإلهيته وقدرته، وحكمته وعلمه، ورحمته بعباده ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: لقوم يتدبرون الآيات فيعتبرون بها، ويعلمون أن من قدر على ذلك فهو قادر على البعث.

وجاء التوفِّي هنا مسندًا إلى الله تعالى؛ لأنه خالق الموت والحياة وهو المتوفِّي حقيقة؛ لأن التوفِّي كان بمشيئته وأمره، وأُسنِد إلى ملَك الموت في قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١] لأنه الموكَّل بقبض الأرواح، وهو الذي يباشر قبض الروح، وأُسنِد التوفِّي إلى الملائكة في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] لأنهم أعوان الملك الموكَّل بقبض الأرواح، من ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، فلا تعارض بين الآيات، والحمد لله رب العالمين.

ثم أنكر تعالى على المشركين اتخاذَ الأصنام شفعاء يعبدونهم من

دون الله، فقال سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي تفيد معنى **حرفين**:

أحدهما: همزة الاستفهام الإنكاري المقصود به التوبيخ.

الثاني: (بل) التي تفيد الانتقال من معنى إلى آخر، فهو انتقال من ذكر قبائحهم قبل هذه الآية إلى ذكر نوع آخر منها؛ أي: بل اتخذ المشركون آلهة غير الله يعبدونهم ليكونوا شفعاء لهم عند الله؛ أي: وسطاء يقربونهم إلى الله، ويشفعون لهم عنده في حاجاتهم الدنيوية كالصحة وسعة الرزق، والأخروية كدفع العذاب، على فرض ثبوته عندهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿قُلْ﴾؛ أي: قل لهم - أيها الرسول - ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ الهمزة في ﴿أَوَلَوْ﴾ للإنكار عليهم، والواو عاطفة على محذوف؛ أي: أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئًا ولا يعقلون؟ فرجاء الشفاعة ممن هذه صفته حُمق وسفَه وجهل.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾؛ أي: قل - أيها الرسول - للمشركين: لله - وحده - الشفاعة كلُّها، فهو مالكها بجميع أنواعها، فلا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولا تنفع شفاعة إلا أن يقبلها الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، فلا تُطلب الشفاعة إلا منه تعالى، لا من هذه الأصنام، ولهذا قال سبحانه: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: له - وحده - ملك السماوات والأرض وما فيهن، وهذا كالدليل لما سبق؛ أي: فلا أحد يملك أن يتكلم في أمر نفسه، فضلًا عن أن يشفع لأحد إلا بإذنه تعالى

للشافع، ورضاه عن المشفوع له ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تُرَدُّون إلى الله بالبعث يوم القيامة، فينبئكم بأعمالكم، فيجازي كلًّا بعمله، حسنًا كان أو سيِّئًا، وفي ذلك اليوم يكون الملك كلُّه لله، ويزول كلُّ ملكٍ لغيره، كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أفعاله تعالى: تَوفِّي النفوس بالنوم أو الموت.

٢ ـ أن الله هو المتصرف في نفوس العباد بالإمساك والإرسال.

٣ ـ أن من دلائل ربوبيته تعالى وإلهيته: أنه الذي يحيي ويميت، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤].

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

٥ ـ أن النوم يسمَّى توفِّيًا.

٦ ـ أن النفوس تكون بعد التوفِّي عند الله، فما قضى عليها الموت أمسكها، ويرسل الأخرى إلى الأجل المقدَّر بالموت.

٧ ـ أن لموت كلِّ أحد أجلًا مسمًّى.

٨ ـ أنه ليس أحدٌ من البشر مخلَّدًا.

٩ ـ الرد على القدرية في قولهم: إن المقتول مقطوع أجله.

١٠ ـ الحث على تذكُّر الموت، والتفكُّر في حال الإنسان فيه.

١١ ـ أن المتفكرين هم المنتفعون بالآيات.

١٢ ـ الحث على التفكُّر في آيات الله.

١٣ ـ أن التفكُّر من طرق العلم.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**إن أمسكت نفسي فارحمها**»[١].

١٥ ـ أن النفس هي الروح.

١٦ ـ أن في الموت والنوم عبرة للمتفكرين.

١٧ ـ إنكار الله على المشركين اتخاذَهم شفعاء من دونه تعالى مع عجزهم؛ لأنهم لا يملكون شيئًا.

١٨ ـ أن المراد بالشفعاء في الآية: الأصنامُ ونحوُها من المعبودات التي لا تعقل.

١٩ ـ أن عدم المِلك والعقل ينافي الإلهية.

٢٠ ـ ضلال المشركين في عبادتهم مَن هذه حالُه.

٢١ ـ تضمُّن القرآن للأدلة العقلية.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [سبأ: ٢٢].

٢٣ ـ إثبات الشفاعة عند الله بإذنه ورضاه.

٢٤ ـ تعدُّد الشفاعات باعتبار الشافعين والمشفوع فيهم.

٢٥ ـ الرد على الخوارج والمعتزلة في إنكار الشفاعة لأهل الكبائر.

٢٦ ـ أن الشفاعة كلها مِلك الله؛ فلا أحد يشفع عند تعالى إلا بإذنه.

---

(١) البخاري (٥٩٦١) ومسلم (٢٧١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٧ ـ إثبات الملك كله لله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٨ ـ أن منتهى الخلق إلى الله، يرجعون إليه بالموت ثم بالبعث.

٢٩ ـ إثبات البعث، وإثبات قدرة الله عليه.

٣٠ ـ في ذكر الرجوع إلى الله بشرى المؤمنين، ووعيد الكافرين.

ثم ذكر تعالى نوعًا آخر من قبائح المشركين، وهو كراهتُهم للتوحيد وحبُّهم للشرك؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ من الله عن سَفَه المشركين وغلوهم في شركهم وتعظيم آلهتهم، حتى إنه إذا ذُكر الله وحده نفروا، وإذا ذكرت آلهتهم سُرُّوا واستبشروا، وتضمَّنت أَمْرَ الله نبيَّه ﷺ بتمجيده بأنه فاطر السماوات والأرض، وعالم الغيب والشهادة، وأنه الذي يحكم بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون، وأخبر تعالى عن الظالمين وهم المشركون، وأنه لو كان لهم ما في الأرض ومثله جميعًا لبذلوه فداءً لأنفسهم من سوء عذاب الله، وبدا لهم في ذلك اليوم ما لم يكونوا يظنونه، وقد كانوا يظنون أن لهم الحسنى، وكانت لهم النار مصيرًا، وظهرت لهم سيئات أعمالهم، وحلَّ بهم ما كانوا به يستهزئون من عذاب الله.

▩ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾؛ أي: دون أن تذكر آلهتهم ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾؛ أي: نفرت وانقبضت ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾؛

أي: الذين لا يصدقون بالآخرة ولا يقرون بها ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ أي: من دون الله، وهي الأصنام والأوثان وسائر معبوداتهم ﴿إِذَا هُمْ﴾؛ أي: المشركون ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: يظهر على وجوههم البشر والسرور؛ لفرط تعظيمهم وحبهم لهم، وهذا من أظهر الأدلة على سَفَههم وحمقهم؛ لأن ذِكر الله رأسُ كلِّ خير، وذِكر الأصنام أصلُ كلِّ شر.

و﴿إِذَا﴾ الأولى والثانية شرطيتان، و﴿إِذَا﴾ الثالثة هي الفجائية التي تدل على سرعة حصول ما بعدها على إثر ما قبلها.

ثم أمر تعالى رسوله ﷺ بتمجيده بأفعاله وصفات كماله من كمال قدرته، وإحاطة علمه، وحكمه بين عباده؛ ليفصل بينه وبين أعدائه، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾؛ أي: قل - أيها الرسول - ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ أصلها: يا الله، حذف حرف النداء، وعُوضت عنه الميم ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يا خالق السماوات والأرض ومبدَعهما بأحسن نظام على غير مثال سابق ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: يا عالم الغيب، وهو كلُّ ما غاب عن حواس الخلق وإدراكهم، فيشمل كلَّ ما غاب من أمور الماضي والحاضر والمستقبل، وما في الدنيا والآخرة، فكلُّه يعلمه الله ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهو ما ظهر لحواسهم فشهدوه وعلموه، و(أل) في الغيب والشهادة للاستغراق الحقيقي، فيفيد أن علمه تعالى محيطٌ شاملٌ لكلِّ شيء، ما ظهر وما بطن، وقدَّم الغيب على الشهادة؛ بيانًا لسعة علمه تعالى، وأنه يستوي عنده السر والعلانية ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾؛ أي: تفصل بينهم ﴿فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: من أمر الدين والدنيا.

وفي الآية زجر ووعيد للمشركين وتسلية للنبي ﷺ، وحثٌّ له على الالتجاء إلى الله، والتوكل عليه أمام عناد المشركين؛ فإنه تعالى القادر على كل شيء.

ثم أخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة حين يرون العذاب مهدِّدًا لهم به، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ أي: كلُّ ما في الأرض جميعًا من الأموال والكنوز لو كانت مِلكًا لهم في ذلك اليوم ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾؛ أي: وضعفه معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ﴾؛ أي: لقدموه فديةً لأنفسهم ليتخلصوا من العذاب الشديد، وقوله: ﴿مِن سُوءِ الْعَذَابِ﴾ صفة مقدمة على الموصوف بالإضافة للمبالغة؛ لأن أعظم ما يُحذر من العذاب سوؤه وشدته ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: في يوم القيامة الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين، وهذا وعيد شديد وإقناط لهم من الخلاص ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: وظهر لهم في ذلك اليوم من أنواع عذاب الله ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾؛ أي: ما لم يخطر على بالهم من العذاب، وهذا نظير قوله تعالى في الوعد: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الحديث القدسي قال تعالى: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(١).

ذكر الذهبي في «السير» في ترجمة محمد بن المنكدر أنه بينا هو ذات ليلة قائم يصلي إذ استبكى، فكثر بكاؤه، حتى فزع له أهله، وسألوه، فاستعجم عليهم، وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم، فجاء إليه، فقال: ما الذي أبكاك؟ قال: مرَّت بي آية، قال: وما هي؟ قال: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾، فبكى أبو حازم معه، فاشتد بكاؤهما(٢).

---

(١) رواه البخاري (٣٠٧٢) ومسلم (٢٨٣٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٥٥).

قوله سبحانه: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾؛ أي: وظهر لهم في ذلك اليوم العصيب قبائح أعمالهم بما سُطِّر في كتابهم، أو: وظهر لهم جزاء سيئاتهم، وهو ما أُعِدَّ لهم من أنواع النكال، وكلٌّ من القولين حق ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: نزل بهم، وأحاط بهم، وصيغة الماضي لتحقُّق الوقوع، ولا يُستعمل (حاق) إلا في المكروه ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: الذي كانوا به يسخرون وهو العذاب العظيم؛ أي: أحاط بهم من كل جهة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

الفوائد والأحكام:

١ ـ كراهة المشركين للتوحيد، وفرحهم بذكر آلهتهم.

٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

٣ ـ أنَّ مَن نفر مِن بعض أحكام الشريعة فبِه شبَه بأولئك المشركين.

٤ ـ أن الإنسان قد يبلغ به الجهل والسَّفه حتى يخرج به عن موجَب فطرته، فيستحسن القبيح، ويستقبح الحسن.

٥ ـ مشروعية تمجيد الله بأفعاله، وصفات كماله.

٦ ـ أن الله فاطر السماوات والأرض؛ أي: مبتدئ خلقهما على غير مثال سابق.

٧ ـ أن السماوات محدثة بعد أن لم تكن، ففيه: الرد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم.

٨ ـ إحاطة علم الله بكل غائب وشاهد، ففيه: وجوب الخوف من الله.

٩ ـ أنه تعالى هو الذي يحكم بين عباده يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من التوحيد والشرك.

١٠ ـ إثبات العبودية العامة.

١١ ـ تسلية المؤمنين بذكر حكم الله بينهم وبين أعدائهم من الكافرين.

١٢ ـ أن الظالمين بالشرك بالله لا ينجيهم من عذاب الله شيء، مهما كان كثرة، وبذلوه فدية.

١٣ ـ أنهم لو كان لهم مثل ما في الأرض جميعًا ومثله معه لبذلوه في تخليص أنفسهم من سوء العذاب.

١٤ ـ شدة عذاب الله.

١٥ ـ أن الظالمين في ذلك اليوم يظهر لهم من حكم الله خلافُ ما كانوا يظنون، وتظهر لهم سيئاتُ أعمالهم، فيُقِرون بها، ويشهدون على أنفسهم، وحينئذ يَحِل بهم عذاب الله الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا.

١٦ ـ حَقارة الدنيا بأسرها عند الكافر إذا شاهد عذاب الله.

١٧ ـ إثبات البعث والجزاء.

١٨ ـ أن من قبائح المشركين: الاستهزاءَ بما أخبرت به الرسل.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ
إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا
كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ
﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمنَّت الآياتُ الإخبارَ عن حال الإنسان مع ربه فيما يجري عليه من أقدار الله من الخير والشَّرِّ؛ ففي الضراء يتوجَّه إلى ربه بالدعاء، وفي السَّرَّاء يعتدُّ بنفسه مُعرضًا عن ربه، ثم يُبَيِّن تعالى أن ذلك كلَّه ابتلاء، ولكن يخفى ذلك على أكثر الناس؛ لأنهم لا يعلمون، وأخبر تعالى أن ذلك دأبُ الإنسان في الماضي والحاضر، فما أغنى عنهم ما نالوا من قوة وسلطان، أو مال وحظٍّ من حظوظ الإنسان، فأصابهم ما أراد اللهُ بهم من بأسه بسوء أعمالهم، وتوعَّد تعالى الظالمين بأن تجري عليهم سُنتُه في الظالمين، ثم وبَّخ الجاهلين بحكمته تعالى في تدبيره في العطاء والمنع؛ فأخبر أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وفي ذلك آياتٌ للمؤمنين بالله المتفكرين في تدبيره وتقديره.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾؛ أي: مكروه في جسده أو ماله أو أهله، من مرض أو فقر أو كرب، والمراد بالإنسان: الجنس ﴿دَعَانَا﴾؛ أي: أخلص في الدعاء لنا متضرعًا ملتجئًا ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً

﴿مِّنَّا﴾؛ أي: أعطيناه نعمة منَّا مكان الشدة بالشفاء من مرضه، أو أغنيناه من فقره، أو أنجيناه من كربه ﴿قَالَ﴾ الإنسان ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي: إنما أوتيت هذا النعمة على علم من الله بأني أهل له، أو على علم منِّي بوجوه الكسب والصَّنعة، وهذا تناقض منه عجيب؛ إذْ يستغيث بربه في الحال الأولى، وفي الحال الثانية ينسب الفضل إلى نفسه، ويجحد نعمة الله عليه ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ هذا ردٌّ من الله لمقالة هذا الإنسان ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي، فهو حرف يدل على إبطال ما قبله، وإثبات ما بعده ﴿فِتْنَةٌ﴾؛ أي: امتحان وابتلاء يتميَّز به الشاكر من الكافر، كما قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

فهذا إخبار عن جنس الإنسان بما يفعله غالبُ أفراده، وهو الإخلاص في الشدائد، والإعراض عند النعم، وأكثر ما يقع ذلك من الكافر، ولهذا استثنى اللهُ من هذا الوصف مَن آمن وعمل صالحًا في قوله تعالى في سورة هود بعدما ذكر حال الإنسان: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢]، وقال رسول الله ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاءُ شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاءُ، صبر فكان خيرًا له»**[1].

وذكَّر الضمير في قوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ حملًا على المعنى؛ أي: الإنعام، وأنَّثه في قوله: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ مراعاة للفظ ﴿نِعْمَةً﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩) عن صهيب رضي الله عنه.

قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يعلمون حكمة الله في العطاء والمنع، وأن ذلك امتحان وابتلاء.

قوله سبحانه: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾؛ أي: قال تلك الكلمةَ وهي: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفار كقارون وغيره ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾؛ أي: فما نفعهم شيئًا ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال ولا دفع عنهم عذابَ الله، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾؛ أي: فأصاب الكفارَ السابقين جزاءُ سيئاتهم ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: من كفار مكة، و﴿مِنْ﴾ بيانية ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ في الدنيا، وهو ما أصابهم من الجوع والقتل في بدر، ولهم في الآخرة عذاب النار ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: وما هم بمعجزين الله ولا مُفلتين من عذابه، والباء لتأكيد النفي.

ثم ذكر تعالى دليلًا على قدرته التامة، وحكمته البالغة، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ هذا استفهام تقرير وتوبيخ؛ أي: قد علموا ذلك، وهمزة الاستفهام في ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ مقدَّمة من تأخير؛ كما هو قول الجمهور، والتقدير: وألم يعلموا، فتكون همزة الإنكار داخلة على حرف النفي (لم)، فيعود المعنى إثباتًا، وهو التقرير.

قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يُوسِّع الرزق لمن يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: ويُضيِّقه على من يشاء؛ لأنه تعالى لا شريك له في ملكه، وإنما يفعل ذلك حسب حكمته تعالى، وما يقتضيه علمُه بأحوال العباد ومصالحهم، ولهذا قال ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: البسط والتضييق ﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ أي: دلائل وعبرًا دالَّة على ربوبيته تعالى وإلهيته وقدرته، وحكمته وعلمه، ورحمته بعباده، وأنه المتصرف في

الناس وأرزاقهم ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون بالله وآياته، ويتفكرون فيها، وفي الإيمان بذلك ما يبعث على الطمأنينة والتوكل على الله.

الفوائد والأحكام:

١ ـ ذمُّ الإنسان الذي لا يعرف ربه إلا في الضَّرَّاء، وينساه في السَّرَّاء.

٢ ـ بيانُ الله لحكمته فيما يجري على الإنسان من الأقدار.

٣ ـ جهلُ أكثر الناس بحكمة الله.

٤ ـ أنَّ من الأخلاق المذمومة: الإعجابَ بالنفس.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

٦ ـ أنَّ الله يبتلي العباد بالسراء والضراء.

٧ ـ أنَّ أكثر الناس يغفلون عن حكمة الله في أقداره.

٨ ـ مدح العلم، وذمُّ الجهل.

٩ ـ مشابهة اللاحقين من الناس للماضين في أقوالهم وأحوالهم.

١٠ ـ أنَّ الظالمين لا ينجيهم من بأس الله ما كسبوا من قوة وسلطان، بسبب ما كسبوا من السيئات.

١١ ـ الردُّ على الجبرية في نفيهم خلقَ أفعال العباد.

١٢ ـ أنَّ سنة الله في الظالمين واحدة لا تتبدل.

١٣ ـ أنَّ السيئات في القرآن يراد بها سيئات الجزاء وسيئات العمل، كالحسنات.

١٤ ـ أنَّ الكفر والشرك أظلمُ الظلم.

١٥ ـ أنَّ الكفر والشرك ـ وهو الظلم ـ سببُ الشقاء في الدنيا والآخرة.

١٦ ـ أنَّ العباد لا يُعجزون اللهَ إذا أرادهم بسوء، فسينفذ فيهم قدره؛ لأنه لا مردَّ لما أراد الله.

١٧ ـ ضعف قوة الكافر مهما بلغت عند قوة الله.

١٨ ـ أنَّ من تقدير الله الحكيم: بسطَ الرزق لبعض الناس دون بعض.

١٩ ـ أنَّ الرزق من عند الله، وإن حصل بالأسباب.

٢٠ ـ أنَّ المشركين يعلمون أن الله هو الذي يرزق العباد، فيبسط الرزق لمن يشاء، ويقدِره على من يشاء.

٢١ ـ إثبات المشيئة لله.

٢٢ ـ أنَّ مردَّ العطاء والمنع والقبض والبسط إلى مشيئة الله.

٢٣ ـ أنَّ في أقدار الله الجارية على العباد آياتٍ للمؤمنين الذين يتدبرون ويتفكرون.

٢٤ ـ أنَّ الإيمان أعظم سبب للانتفاع بآيات الله الشرعيَّة والكونيَّة.

ولما ذكر تعالى وعيده للمشركين أتبع ذلك بذكر رحمته ومغفرته للتائبين؛ **فقال سبحانه:**

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ أَمْرَ الله نبيَّه ﷺ أن يبلِّغ دعوته للمسرفين على أنفسهم بالذنوب ألَّا يقنطوا من رحمته تعالى فيتركوا التوبة؛ لأنه غفور رحيم يتوب على التائبين، ثم أمرهم تعالى بالإنابة إليه بالتوبة النصوح، وأن يبادروا إلى ذلك قبل أن يأتيهم العذاب، وأمْرَهم باتباع أحسن ما أنزل إليهم وهو القرآن، كما تقدم في صدر السورة؛ فإن التفريط في ذلك أعظم سبب للعذاب.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾؛ أي: قل ـ أيها الرسول ـ مبلِّغًا عن ربك قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: أفرطوا في الكفر وكثرة المعاصي، والإسراف هو: مجاوزة الحد في كل فعل يفعله الإنسان ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تيأسوا من رحمة الله ومغفرته، والقُنوط هو: أشد اليأس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾؛ أي: يتجاوز عنها ويمحوها ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مهما تكن في كثرتها وشناعتها، فهو تعالى بمشيئته يغفر كلَّ ذنب حتى الشرك إذا تاب منه صاحبه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾؛ أي: يستر

الذنب ويتجاوز عنه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: الذي يرحم عباده، وهذا تعليل لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾؛ أي: لا يعجزه أن يغفر جميع الذنوب لأنه هو الغفور الرحيم، والآية عامة للمشركين ولعصاة المؤمنين.

وقد اشتملت الآية على **وجوه** من مؤكِّدات الوعد بالرحمة:

الأول: أنه وصف المسرفين بالعبودية المقتضية للرحمة.

الثاني: إضافته تعالى العباد إلى نفسه المقدسة.

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وإذا كان تعالى يغفر للمسرف، فما دونه من باب أولى.

الرابع: أنه تعالى نهاهم عن القُنوط؛ ليفتح لهم باب الرجاء.

الخامس: الالتفات بإضافة الرحمة إلى الاسم الظاهر في قوله: ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ فذِكْرُ هذا الاسم العظيم يقتضي من الرحمة ما يناسبه.

السادس: التأكيد بـ ﴿جَمِيعًا﴾؛ فإنه لو قال: يغفر الذنوب، من غير تأكيد لحصل أصل المعنى، لكنه لما قال: ﴿جَمِيعًا﴾ دلَّ ذلك على كمال مغفرته تعالى.

السابع: تأكيد الوعد بـ ﴿إِنَّ﴾، وتكرارها، وهي من أقوى المؤكِّدات.

الثامن: خَتْم الآية بالاسمين الكريمين: الغفور والرحيم.

فلهذه المعاني والوجوه في الآية الكريمة قال بعض السلف عنها: إنها أرجى آية في القرآن.

ولَمَّا وعدهم تعالى بالمغفرة أرشدهم إلى أسبابها وما يوصل إليها، فقال سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: ارجعوا إليه بالتوبة والأعمال الصالحة ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾؛ أي: واخضعوا له ظاهرًا وباطنًا، وانقادوا له

بكمال الطاعة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: من قبل أن يحلَّ بكم عذابُه تعالى ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا ينصركم أحد بدفع عذابه تعالى عنكم، وفَقْد النصير عند البلاء بلاءٌ آخر ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وهو القرآن؛ فإنه أفضل الكتب المنزلة من الله ﷻ، واتباعه يكون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويحتمل أن يكون المعنى: اتبعوا أحسن ما في القرآن؛ أي: أفضل ما فيه من الشرائع والأحكام، كالفرائض مع النوافل، والعزائم مع الرخص ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة، من غير استعداد منكم له ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؛ أي: لا تشعرون باقتراب العذاب ومقدماته، وهذا أشد ضررًا، وأعظم أثرًا.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من القول الذي يأمر الله به نبيَّه ﷺ ما هو أمر بتبليغ كلامه تعالى، وخطابه لبعض عباده.

٢ ـ وجوب إبلاغ هذا القول على الرسول ﷺ.

٣ ـ أهميَّة ما أمر اللهُ نبيَّه ﷺ بإبلاغه أمرًا خاصًا.

٤ ـ إثبات العبودية العامة.

٥ ـ ترغيب المسرفين على أنفسهم في التوبة.

٦ ـ تحريم القُنوط من رحمة الله.

٧ ـ فيها شاهد لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

٨ ـ أن القُنوط من رحمة الله سوءُ ظنٍّ بالله ينافي أن الله غفور رحيم.

٩ ـ أن مغفرة الله لذنوب العباد من مقتضَيات رحمته.

١٠ ـ أن أفعاله تعالى من مقتضَى أسمائه.

١١ ـ عموم هذا الوعد للكفار وعصاة الموحدين.

١٢ ـ اختصاص هذا الوعد ـ وهو مغفرة جميع الذنوب ـ بالتائبين، وبه يحصل الجمع بين هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، وبيانه: أن آية الزمر في التائبين، وآية النساء في غير التائبين.

١٣ ـ إثبات الاسمين الكريمين: الغفور والرحيم، وما دلَّا عليه من صِفَتي المغفرة والرحمة.

١٤ ـ أن التوبة سبب لمغفرة جميع الذنوب.

١٥ ـ وجوب التوبة من جميع الذنوب حتى الصغائر، كما في آية غض البصر: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

١٦ ـ وجوب الاستسلام ظاهرًا وباطنًا لحكم الله تعالى وأمره.

١٧ ـ وجوب المبادرة بالإنابة والاستسلام لحكم الله تعالى قبل حُلول العذاب.

١٨ ـ أنه ليس بين العبد وربه في التوبة إليه تسبُّبٌ بأحد من المخلوقين.

١٩ ـ وجوب اتباع القرآن بالإيمان به، وامتثال أوامره ونواهيه؛ لأنه أحسن ما أنزل الله، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهو القرآن.

٢٠ ـ فضل هذه الأمة بإنزال أحسن الكتب إليها.

٢١ ـ أن شرائع الإسلام تتفاضل؛ ففيها الحسن والأحسن، فالنوافل حسنة، والفرائض أحسن.

٢٢ ـ الإرشاد إلى أخذ الأرجح في مواضع الاختلاف.

٢٣ ـ إثبات العلوِّ لله تعالى.

٢٤ ـ إثبات الربوبية العامة.

٢٥ ـ أن إنزال القرآن من مقتضَى ربوبيته تعالى.

٢٦ ـ أن الإعراض عن اتباع القرآن سبب حلول العذاب بغتة؛ أي: والعبد غافل لا يشعر.

٢٧ ـ أن عذاب الله قد يأتي دون مقدِّمات.

٢٨ ـ أن ما يأتي من العذاب بغتةً أشدُّ على النفوس مما يأتي جهرة.

٢٩ ـ أن عذاب الله إذا نزل فلا يقدر أحد على صرفه.

ولما أمرهم اللهُ بالتوبة، وخوَّفهم بإتيان العذاب ذكر علة ذلك؛ فقال سبحانه:

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

▣ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عمَّن أسرف على نفسه وفرَّط في التوبة أنه يتحسر ويعترف على نفسه بالتفريط، ويتمنَّى لو هداه الله، ويتمنَّى الكرَّة بالرجوع إلى الدنيا؛ ليستدرك ما فاته من العمل الصالح فيكون من المحسنين، وحينئذٍ يوبَّخ بأنه لا عذر له، فقد جاءته الآياتُ فكذَّب بها واستكبر وكان من الكافرين.

▣ التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ المصدر المؤوَّل مفعول لأجله، وهو متعلق بما قبله من الأمر بالإنابة والإسلام لله تعالى؛ أي: بادروا بذلك؛ لئلا تقول نفس، أو خشيةَ أن تقول نفس، وتنكير نفس للنوعيَّة؛ أي: نوع من النفوس، وهي نفس الكافر، ولا يشمل ذلك عصاة المؤمنين؛ لقول النفس: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾، ولقوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾، فهذا خاص بالكفار، فيكون انتقالًا من العام في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ﴾ [الزمر: ٥٣] إلى بعض أفراده، وهو الكافر.

قوله: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ أصلها يا حسرتي؛ أي: يا ندامتي، فألف يا حسرتا مبدلة من ياء الإضافة، والعرب تبدل ياء الضمير ألفًا في الاستغاثة؛ طلبًا لخفَّة الألف مع الياء بالنسبة إلى الياء والكسرة، فيقولون: يا ويلتا، ويا ندامتا، ويا حسرتا ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ ﴿مَا﴾ مصدريَّة؛ أي: على تفريطي وتقصيري ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في جانب الله وطاعته، والجنب والجانب مترادفان ﴿وَإِن كُنتُ﴾ ﴿إِنْ﴾ هي المخفَّفة من الثقيلة، واسمها محذوف، والتقدير: وإنِّي كنت ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾؛ أي: المستهزئين، فجمع بين إعراضه عن طاعة ربه، واستهزائه بالدين وأهله المستمسكين به.

ولا تدل الآيةُ على إثبات صفة الجنب لله تعالى؛ لأن فيها قوله: ﴿فَرَّطتُ﴾، ولا يقال ذلك في صفات الله؛ فإنه لا يقع فيها تفريطٌ من العبد، وإنما يكون التفريط في حقوق الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولَ﴾ ﴿أَوْ﴾ للتنويع فيما تقوله النفس الكافرة في ذلك اليوم؛ أي: تقول هذا أو هذا ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾؛ أي: لو وفقني لاتباع الحق، و﴿لَوْ﴾ شرطية، وفعل الشرط مفهوم من المصدر المؤوَّل تقديره: لو هداني الله، كما يدل له قوله تعالى عن المستكبرين: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٢١]، ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ أي: من أهل التقوى.

قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ﴾؛ أي: في ذلك اليوم ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ﴾؛ أي: رجعةً إلى الدنيا، و﴿لَوْ﴾ للتمني ﴿فَأَكُونَ﴾ منصوب في جواب التمني ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: الذين أحسنوا العمل.

ولما كان قول النفس الكافرة: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ يتضمَّن نفي

الهداية؛ أي: ما هداني الله، جاء الردُّ عليه بقوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ فـ ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب لإبطال النفي قبله؛ أي: بلى قد هداك الله بما جاءك من آياته، وهي القرآن الذي هو سبب هداية التوفيق، وهذا بالنسبة لكفَّار هذه الأمة، وأما كفار الأمم الأخرى فلكل أمة كتابها ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾؛ أي: بالآيات ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ عنها، كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: الجاحدين الراسخين في الكفر.

وإنما أخر الجواب عن قول النفس: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ لئلا يفصل بين المقالات الثلاث المتوالية، فحُكيت أقوال النفس على ترتيبها ونظمها، ثم أجيب من بينها عمَّا اقتضى الجواب، فالكافر يتحسَّر ـ أولًا ـ على التفريط، ثم يتعلل بعدم إرشاد الله له في الدنيا طمعًا في النجاة، ثم يتمنَّى الرجوع إلى الدنيا، ولم يورد جوابٌ عن قول النفس: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ لأنه إقرار.

ويرى ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ أن قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ جوابٌ لـ ﴿لَوْ﴾ في الموضعين؛ أي: في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]؛ أي: ليس الأمر كما تقولون، بلى قد جاءتكم الآياتُ فلم تؤمنوا بها.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تعليل ما سبق من الأوامر والنواهي.

٢ ـ أن التفريط بالتوبة والطاعة سببٌ للحسرة.

٣ ـ أن المفرِّط في حق الله يتمنَّى لو كان من المتقين.

---

(١) «جامع البيان» (٢٠/ ٢٣٧).

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

٥ ـ أن الهدى إلى الله ﷻ، فهو الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء.

٦ ـ الرد على القدَريَّة.

٧ ـ ندم الكافر على تفريطه في حق الله عند حُلول العذاب، حتى يقر على نفسه بالتفريط، ويتمنَّى الرجعة إلى الدنيا ليحسن العمل، فيكون من المحسنين.

٨ ـ تحريم السخرية بالله وشرعه ورسله والمؤمنين، وأنها من أعمال الكفار.

٩ ـ احتجاج النفس المفرطة بقدر الله، والاحتجاج بالقدر باطل في الدنيا والآخرة.

١٠ ـ أنه لا عذر للمفرط في الإيمان بالله وآياته.

١١ ـ أن تقوى الله سبب النجاة من العذاب، كما تدل عليه الآية الآتية: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزمر: ٦١].

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠].

١٣ ـ قيام الحجة على العباد بإنزال القرآن.

١٤ ـ أن عذاب الله للكفار جزاءٌ لهم على التكذيب بآيات الله، وهم مستحقون له، فهو عدل من الله فيهم.

١٥ ـ أن من أسباب التكذيب بآيات الله: الاستكبار.

١٦ ـ أن الاستكبار عن الإيمان بآيات الله يَصير به العبد من الكافرين، وكذا المستكبر عن طاعة الله، وهذا خُلُق إبليس.

١٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى عن إبليس: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ خبرًا من الله بحال الذين افتروا عليه الكذب يوم القيامة، وأنهم تسوَدُّ وجوههم، وأن لهم مثوى في جهنم لتكبرُّهم، ثم أخبر تعالى أنه ينجِّي المتقين من جهنم، وفي ذلك فوز لهم، فلا يمسهم سوء ولا هم يحزنون، ثم أخبر عن عموم خلقه وتدبيره وملكه؛ فمن كفر بآياته كان من الخاسرين.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ هذا متصل بالوعيد السابق في هذه السورة لبيان حال الكافرين المفترين على الله في الآخرة؛ لأن ذلك أعظم تفريط في حق الله؛ أي: وترى عِيانًا - أيها الرائي - الذين كذبوا على الله بنسبة الولد والشريك إليه وادِّعاء أن القرآن كذبٌ تراهم وجوههم مسودَّة من الكآبة والخوف العظيم ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾؛ أي: مقام، من قولهم: ثوَى فلان بالمكان إذا أقام فيه ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ أي: عن الإيمان بالله وطاعته، وهو استفهام إنكاري دخل على نفي، ونفي النفي إثبات، ويعبَّر عنه بالاستفهام التقريري، وهو: حمل المخاطب على الإقرار بمضمون الجملة؛ أي: إن

في جهنم مأوى ومنزلًا لكل متكّبر كافر بالله، وهذا الجزاء موافق لعملهم، فهم لما تكبروا عوقبوا ـ إذلالًا لهم ـ بتسويد الوجوه والإلقاء في النار.

ولما ذكر حال الأشقياء في ذلك اليوم أتبعه بحال السعداء، فقال سبحانه: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾؛ أي: وينجِّي اللهُ المتقين من العذاب ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ أي: بفوزهم، والباء للملابسة، والجار والمجرور في موضع الحال؛ أي: وينجِّيهم فائزين، وذكر كثير من المفسرين أن الباء للسببية، وفيه بُعد؛ لأن الشيء لا يكون سبب نفسه ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ هذا تفسير وبيان للمفازة؛ أي: لا يصيبهم الأذى في أبدانهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بقلوبهم على ما تركوا من الدنيا، فهم في نعيم مقيم.

ثم ذكر تعالى البرهان على تحقق الوعد والوعيد، فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: خالق الأشياء كلِّها؛ أي: موجدُها على ما أراد سبحانه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾؛ أي: أي: المتولِّي لجميع الأشياء بالحفظ والتدبير بحكمته ومشيئته وقدرته.

قوله سبحانه: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ المقاليد هي: المفاتيح، واحدها إِقْلِيد على غير قياس، أو مِقْلاد، وهذا التعبير كناية عن عموم ملكه تعالى وكمال تدبيره؛ أي: له تعالى ـ وحده ـ ملك السماوات والأرض، وتدبير جميع المخلوقات، فهو تعالى الملك، وهو المالك لكل شيء، وما سواه مملوك ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: آياته الكونية، وهي مخلوقاته الدالة عليه سبحانه، والشرعية المنزَّلة على رسله، وأعظمها القرآن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: المغبونون أشدَّ الغبن؛ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات البعث.

٢ ـ سوء عاقبة المفترين للكذب على الله بسواد وجوههم، فضيحةً لهم في ذلك اليوم العظيم.

٣ ـ أنهم جمعوا بين افتراء الكذب والتكبُّر عن آيات الله، فكان جزاؤهم مثوًى في جهنم.

٤ ـ تحريم الكذب على الله.

٥ ـ تحريم الفتيا بغير علم.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [هود: ١٠٦].

٧ ـ تحريم التكبر على الله، وأنه صفة الكافرين.

٨ ـ منَّة الله على المتقين بالنجاة.

٩ ـ أن التقوى هي السبب في ذلك.

١٠ ـ أن النجاة من عذاب الله فوز عظيم.

١١ ـ أن من بشرى المتقين: ألَّا يمسهم سوءٌ ولا يحزنون.

١٢ ـ أن الله خالقُ كلِّ شيء، وأنه المدبِّر لكلِّ شيء.

١٣ ـ أنه تعالى هو المتصرف في جميع خلقه بمشيئته وحكمته.

١٤ ـ أن له ملك السماوات والأرض.

١٥ ـ إرشاد العبد إلى ألَّا يستعين إلا بالله، ولا يتوكل إلَّا عليه تعالى.

١٦ ـ الردُّ على القدرية.

١٧ ـ أن الكافرين بآيات الله هم الخاسرون.

١٨ ـ وجوب الإيمان بآيات الله، وأن المؤمنين بها رابحون.

﴿ قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

▣ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآياتُ أَمْرَ الله نبيَّه ﷺ أن ينكر على المشركين دعوتهم له أن يعبد غير الله، وحذَّره من إجابتهم لما يدعونه إليه من الشرك، وأخبره تعالى بما أوحى به إليه وإلى مَن قبله من النبيين بحُبوط عمل من أشرك به وخسرانه، ثم أمره بعبادته وحده ضدَّ ما دعاه إليه المشركون، وأن يشكره على ما أنعم به عليه من النبوة والدين الحق، ثم أخبر تعالى أن المشركين لم يقدُروا الله حقَّ قدره، ولم يعظموه حقَّ تعظيمه، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، ومن دلائل عظمته: أنه يأخذ السماوات والأرض بيديه، فيقبض الأرض ويطوي السماوات بيمينه، ثم نزَّه نفسه تعالى عن شرك المشركين به.

▣ التفسير:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والفعل ﴿قُلْ﴾ يشعر بأهمية المَقُول المأمور به، وسرعة المواجهة به، و﴿غَيْرَ﴾ منصوب بـ ﴿أَعْبُدُ﴾، فهو مفعول به مقدَّم؛ أي: قل ـ أيها الرسول ـ لقومك المشركين الذين يدعونك إلى عبادة الأصنام: أتأمرونني أن أعبد غير الله؟! والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتجهيل،

وإنما وصفهم بالجهل؛ لأنهم قامت لديهم أدلة وحدانيته وربوبيته تعالى، فأعرضوا عن الإيمان به، وعبدوا الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولا تملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

ثم حذَّر اللهُ نبيَّه من الشرك، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ والموحي هو الله تعالى ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: أوحينا إليك وإلى كل واحد من الرسل قبلك ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؛ أي: ليبطُلَنَّ عملُك ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: في الآخرة، والكلام على سبيل الفرض والتقدير؛ لأن الأنبياء معصومون من الشرك الأكبر والأصغر، وإنما الغرض التحذير من الشرك، وبيان سوء عاقبته، وقطع طمع المشركين.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ هذا إضراب وإبطال لما دعوه إليه من الشرك؛ أي: لا تطع المشركين ـ أيها الرسول ـ فيما دعوك إليه، بل اعبد الله وحده ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: وكن من القوم الشاكرين لله على نعمه، وأعظمها النبوة.

ثم ذكر تعالى ما يدل على كمال عظمته وعزته، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ أي: وما عظَّم هؤلاء المشركون ربَّهم حقَّ تعظيمه، وهو التعظيم الواجب عليهم ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ مبتدأ ﴿جَمِيعًا﴾ حال ﴿قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ خبر المبتدأ؛ أي: والحال أن الأرض بما فيها من الجبال والبحار والأشجار في قبضة يده تعالى بشماله يوم القيامة؛ لقوله ﷺ: **«ثم يطوي الأرضين بشماله»**[1]، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾؛ أي:

---

(١) رواه مسلم (٢٧٨٨) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وبه يُعلم أنه لا حرج من إطلاق لفظ الشمال على يده تعالى الأخرى، والقول بأن هذه الرواية شاذة لا وجه له ولا دليل عليه، وحديث عبد الله بن عمرو في صحيح مسلم (١٨٢٧)، ولفظه: **«كلتا يديه يمين»** لا يدل على أن كلتا يديه يمين بالمعنى المقابل للشمال، بل المراد أن كلتا يديه ذاتُ يمن وخير وبركة.

والسماوات على عظمتها وسعتها مطوياتٌ بيمينه تعالى، ويشهد لهذا: قوله ﷺ: «**يقبض اللهُ الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**».

قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيها له تعالى عن كل نقص ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾؛ أي: تعاظم وارتفع، وهي تأكيد لـ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ لأن مدلولها التنزيه عن جميع النقائص والعيوب، وهي بهذا المعنى في جميع مواردها في القرآن، كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]، ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (ما) مصدرية؛ أي: تعالى اللهُ وتنزَّه عن إشراكهم غيرَه معه في عبادته.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ غرور المشركين بأنفسهم ودينهم حتى أمروا الرسول ﷺ بعبادة غير الله.

٢ ـ وجوب الإنكار على من يدعو إلى الشرك أو غيره من معاصي الله.

٣ ـ وجوب الحذر من دعوة المشركين إلى دينهم.

٤ ـ أن الجهل مصدر الشرك والدعوة إليه.

٥ ـ تسفيه المشركين وتجهيلهم في دعوتهم لعبادة غير الله.

٦ ـ أن التوحيد علمٌ ورشد.

٧ ـ أن الشرك بعبادة غير الله يُحبط العمل.

٨ ـ أن الله أوحى بذلك إلى كلِّ الأنبياء.

٩ ـ أن هذا الحكم ثابت في جميع الشرائع.

١٠ ـ جواز فرض المستحيل؛ لتأكيد الحكم.

١١ ـ إثبات الوحي من الله إلى أنبيائه ورسله.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣].

١٣ ـ أن من أشرك بالله كان من الخاسرين.

١٤ ـ أن الكافرين خاسرون وإن أوتوا ما أوتوا من حظوظ الدنيا.

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

١٧ ـ وجوب عبادة الله وحده.

١٨ ـ وجوب الشكر على مَن أنعم اللهُ عليه بنعمه، وأعظم ذلك النبوة.

١٩ ـ أن المشركين لم يعظِّموا الله التعظيم الذي يستحقه، بل تنقَّصوا الله بالشِّرك به.

٢٠ ـ وجوب تعظيم الله حقَّ تعظيمه المستطاع.

٢١ ـ أن الله يأخذ الأرض والسماوات يوم القيامة بيديه.

٢٢ ـ إثبات قبض اليدين وبسطهما إذا شاء اللهُ تعالى.

٢٣ ـ طي السماوات يوم القيامة.

٢٤ ـ فضل السماوات على الأرض لتخصيصها بيمين الله.

٢٥ ـ أن لله يدين يمينًا وشمالًا.

٢٦ ـ أن الله عظيم لا أعظم منه تعالى.

٢٧ ـ الإشارة إلى نهاية هذا العالم من السماوات والأرض.

٢٨ ـ حُسن بيان القرآن لحقائق الأشياء، ومن ذلك: تعليل الأحكام.

٢٩ ـ أن الشرك تنقُّص لله، يجب تنزيه الله عنه.

ثم ذكر تعالى أشياء من دلائل عظمته وقدرته وكمال سلطانه، وهو ما يكون من أحداث القيامة، **فقال سبحانه:**

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآياتُ الإخبارَ عن نفخة الصَّعق، ونفخة القيام من القبور، ومجيء الرب للفصل، وإشراق الأرض بنوره، ووضع كتاب الأعمال في الأيمان والشمائل، ومجيء الأنبياء والشهداء، والقضاء بين العباد بالحق، وبهذا توفَّى كلُّ نفس ما عملت، والله أعلم بما يفعل العاملون.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وهو قرن، كما في الحديث[1]، وسمَّاه اللهُ الناقور في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]، ولم يُذكر النافخ؛ لأن المقصود هو ذكر النفخ، والنافخ مَلَك، وأجمع العلماءُ

(١) رواه أحمد في «المسند» (٦٥٠٧)، وقال محققوه: (إسناده صحيح)، والترمذي (٢٤٣٠) وقال: حديث حسن، وأبو داود (٤٧٤٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال جاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ، فقال: ما الصور؟ فقال: **«قرن يُنفخ فيه»**، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٨٠).

على أنه إسرافيل، كما يقول القرطبي[١]، وجاءت بذلك أخبار ولكنها لا تصح في أفرادها، المعنى: أنه سيُنفخ في الصور عند نهاية الحياة الدنيا، فقوله: ﴿وَنُفِخَ﴾ من التعبير بالماضي عن المستقبل لتحقُّق الوقوع، ويؤيده: حديث: «**كيف أنعم وقد التقم صاحبُ القرنِ القرنَ، وحَنَى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ؟**»[٢].

والنفخة المذكورة هي أولى النفختين، فيصيب العالَمَ حينئذ فزعٌ عظيمٌ، ثم يَصعقون فيموتون في إثر الفزع، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلا من شاء اللهُ أنهم لا يَصعقون، وقيل: منهم الحور والولدان في الجنة، ولم يرد في تعيينهم خبر صحيح، فالله أعلم بهم ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ وهي نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمْ﴾؛ أي: الخلق ﴿قِيَامٌ﴾؛ أي: قائمون أحياء، و(إذا) للمفاجأة تدل على سرعة حصول ما بعدها، وهو حُلول الحياة في جميع الموتى مَن صَعِق ومَن في القبور، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ ـ ١٤]؛ أي: على وجه الأرض أحياءً بعد أن كانوا في جوفها أمواتًا.

قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ أي: ينظرون إلى ما حولهم وإلى ما حدث، وهذا يدل على أنهم حَيُوا حياة كاملة.

ثم وَصف أرضَ المحشر بقوله سبحانه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢٠) عند تفسيره آية الأنعام (٧٣) وهي قوله تعالى: ﴿وَقَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٠٠٨)، وحسن محققوه إسناده، والترمذيُّ (٣٢٤٣) وابن ماجه (٤٢٧٣) عن أبي سعيد ﷺ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٧٩).

﴿رَبِّهَا﴾؛ أي: واستنارت الأرضُ بنور خالقها، وهو الله ربُّ العزة، لَمَّا تجلَّى لفصل القضاء بين عباده، كما قال سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وهذا النور هو نور ذاته تعالى، فإضافته إليه سبحانه من إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: أُحضر الكتاب وهو سجل الأعمال، والمراد الجنس، فلكل عامل كتابه، فمنهم من يُعطى كتابه بيمينه، ومنهم من يعطى بشماله ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ليشهدوا على أممهم بأنهم بلَّغوهم ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾؛ أي: وجيء بالشهداء، وهم هذه الأمة ليشهدوا للأنبياء بالبلاغ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهذه الشهادة لتأكيد الحجة، وقطع المعاذير، وتوبيخ المكذبين، وإلا فشهادة الله مُغنية عن كل شهادة، كما قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقال: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

قوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم لا يظلمون؛ فلا يزاد في سيئاتهم، ولا يُنقَص من حسناتهم ﴿وَوُفِّيَتْ﴾؛ أي: أُعطيت ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾؛ أي: جزاءَ ما عملت من خير أو شر ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله ﷻ ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: بما عملوا في الدنيا، فهو تعالى أعلم بهم من كل أحد.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ نهاية الحياة الدنيا، وبداية القيامة.

٢ ـ الردُّ على المشركين والملاحدة الجاحدين ليوم القيامة، والقائلين بأبدية هذا العالم.

٣ ـ أن من أحوال القيامة: النفخ في الصور.

٤ ـ أن النفخ في الصور يكون مرتين؛ نفخة الصعق، وبها تموت

الخلائق في السماوات والأرض إلا من شاء الله، ونفخة القيام من القبور.

٥ ـ إثبات الصور، وهو قرن، وكِّل بالنفخ فيه إسرافيل.

٦ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٧ ـ أنه بعد النفخة الثانية لا يبقى في الأرض أحد من الأموات، بل يقومون جميعًا.

٨ ـ أنهم لا يتأخرون بعد النفخة الثانية، بل يقومون فورًا.

٩ ـ أنهم إذا قاموا ينظرون.

١٠ ـ كمال قدرة الله؛ إذْ يموت أهلُ السماوات والأرض بنفخة واحدة، ويقومون بنفخة واحدة.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

١٣ ـ أن الأرض تُشرق بنور الله إذا جاء سبحانه للفصل.

١٤ ـ إثبات صفة النور لله تعالى.

١٥ ـ إثبات الربوبية العامة لله تعالى.

١٦ ـ إثبات كتب الأعمال، وأنها تُعطَى لأهلها في ذلك اليوم.

١٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩].

١٨ ـ أنه يجاء بالأنبياء والشهداء ليشهدوا على الأمم بأن الرسل بلَّغتهم.

١٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

٢٠ ـ أن يوم القيامة هو يوم القضاء بين العباد، وتوفية النفوس جزاء أعمالها.

٢١ ـ إثبات عمل المكلَّفين، والرد على الجبرية.

٢٢ ـ إحاطة علم الله بأفعال العباد.

٢٣ ـ جواز استعمال أفعل التفضيل في حق الله؛ لقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾.

٢٤ ـ الفرق بين العمل والفعل.

٢٥ ـ أنه لا يُظلم أحد في قضاء الله في ذلك اليوم.

٢٦ ـ إثبات كمال العدل لله تعالى.

٢٧ ـ الإرشاد إلى مقام المراقبة بملاحظة علم الله بالأعمال.

ولما ذكر تعالى توفية الأعمال لكل نفس، أتبعه بذكر مآل الفريقين الأشقياء والسعداء؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عمَّا يُفعل بالكفار والمتقين في ذلك اليوم، وأن الكافرين يُساقون إلى نار جهنم، فإذا بلغوها فتحت أبوابها وقالت لهم خزنتها موبِّخين: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؟! فيُقر الكافرون بذلك، ويحيلون أمرهم إلى حكم الله وكلمته التي حقَّت على الكافرين، فيقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، ويُساق المتقون إلى الجنة زمرًا، حتى إذا وصلوها وفتحت أبوابها، وقال لهم خزنتها مهنئين ومحيِّين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

▩ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: دُفعوا إليها دفعًا بعنف وإهانة، كما يدل عليه المقام، ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، والتعبير بالماضي ﴿سيق﴾ لتحقُّق

وقوعه ﴿زُمَرًا﴾ حال؛ أي: جماعات، جمع زُمْرة، بعضُها في إثْر بعض، بحسب الأمم أو الأعمال ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية، وما بعدها جملة ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمَّن معنى الشرط ﴿جَآءُوهَا﴾ فعل الشرط ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ جواب ﴿إِذَا﴾؛ أي: حتى إذا وصلوا إلى جهنم - وهي دار العذاب - فتحت لهم أبوابها وهي سبعة، كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، وأبوابها مغلقة قبل وصولهم إليها لبقاء حرِّها، فإذا دخلوها أغلقت أبوابها، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ [البلد: ٢٠]، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ وهم الملائكة الموكلون بالنار القائمون عليها، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؛ أي: بشر من جنسكم تفهمون كلامهم وتخاطبونهم، والاستفهام للتقرير والتوبيخ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: يقرؤون آيات الله التي أنزلها إليكم، وهو شامل لجميع الكتب ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾؛ أي: ويخوفونكم ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؛ أي: حضورَ هذا اليوم العصيب، وهو يوم القيامة، وأضيف إليهم لأنه يوم جزائهم الذي وُعدوا، كما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].

ولما كان سؤال الخَزَنة للتوبيخ والتقرير، وهو تقرير المخاطبين بما لا يمكن دفعه وحَمْلهم على الإقرار، أجابوا بقولهم: ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: قد جاءت الرسل وأنذرونا، وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم، وهذا الإقرار لا ينفعهم في ذلك اليوم، ولهذا قالوا: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ﴾؛ أي: وجبت وثبتت ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهي كلمته تعالى المتضمنة لحكمه أن الكافر معذَّبٌ في النار، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦].

قوله سبحانه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: تقول لهم الخَزَنةُ ذلك على سبيل الإهانة، ولم يذكر القائل؛ للعلم به من السياق، ولأن الأهم هو ذكر ما يقال لهم، وأنه أمر عظيم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾؛ أي: ادخلوها مقدَّرًا لكم الخلود الأبدي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ [النساء: ١٦٨ ـ ١٦٩]، ﴿فَبِئۡسَ﴾ فعل ماض لإنشاء الذم؛ أي: بلَغ الغاية في البؤس والشقاء ﴿مَثۡوَى﴾؛ أي: محل الثَّواء والإقامة ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ أي: الذين تكبَّروا عن الإيمان بالله ورسله، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: جهنم؛ أي: بئس منزلُ مَن تكبَّر عن الإيمان جهنم.

ثم ذكر حال السعداء فقال سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾؛ أي: اتقوه تعالى بفعل الطاعات، وترك المنهيات، وسَوْقهم بإكرام ليصلوا سريعًا إلى دار الكرامة والرضوان، وذِكر ﴿سيق﴾ مشاكلة لما قبله، وإن اختلف السَّوقان، فالأول للتعنيف، والثاني للتشريف، وذهب بعض المفسرين إلى أن المَسُوق هو مراكبهم؛ حثًّا لها على الإسراع بهم إلى الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم: ٨٥]؛ أي: رُكباناً، قال قتادة: «وفدًا إلى الجنة»[(١)].

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرٗاۖ﴾؛ أي: جماعات بحسب مراتبهم: الأبرار فالمتقون فمَن بعدهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾؛ أي: وصلوا إليها ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ تفتحها الخَزَنة، وهي ثمانية أبواب، كما جاء في حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الرَّيَّان، لا يدخله إلا الصائمون**»[(٢)]، فهي أكثر من أبواب

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٦٥) وابن جرير الطبري (١٥/ ٦٣٠).
(٢) البخاري (٣٠٨٤).

النار، وهذا من كرمه سبحانه ورحمته، كما قال ﷺ: «**لما قضى اللهُ الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: سلمتم من كل مكروه، وهذا دعاء وتحية لهم ﴿طِبْتُمْ﴾؛ أي: طابت أعمالكم في الدنيا ﴿فَٱدْخُلُوهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ أي: مقدَّرًا لكم الخلود، فلا تموتون ولا تخرجون منها.

وقد اختلف المعربون في الواو في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾؛ فقيل: عاطفة على محذوف هو جواب ﴿إِذَا﴾؛ أي: حتى إذا جاؤوها هُذِّبوا ونقوا واطمأنُّوا وفتحت أبوابها، ويشهد له: قوله ﷺ: «**يخلص المؤمنون من النار**» يعني بعد العبور على الصراط «**فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة**»(٢)، الحديث.

وقيل: هي واو الحال؛ أي: وقد فتحت أبوابها، وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف تقديره: فازوا وسعدوا، وعلى هذا الوجه الإعرابي تكون أبواب الجنة مفتوحة قبل مجيئهم إليها.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الناس بعد الحشر يصيرون فريقين: أهل الجنة وأهل النار، فيساق الكفار إلى النار، ويساق المتقون إلى الجنة.

٢ ـ أن الفريقين يكونون في هذا السوق زُمَرًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٢٢) ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٧٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٣].

٤ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**إن أول زمرة من أمتي تدخل الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر، والزمرة الثانية على أضوإ كوكب دريٍّ في السماء**»(١).

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤ ـ ١٦].

٦ ـ التقابل والتباين بين الفريقين في الأعمال والأحوال والمآل.

٧ ـ إثبات الجنة والنار.

٨ ـ أن للجنة والنار خَزَنة من الملائكة.

٩ ـ أنهم يتكلمون بكلام مفهوم.

١٠ ـ أن للجنة والنار أبوابًا تفتح وتغلق.

١١ ـ إهانة الكفار بِسَوقهم إلى النار.

١٢ ـ أن الكفار إذا انتهوا إلى النار يوبَّخون ويهدَّدون.

١٣ ـ أن الله يجمع لأهل النار بين عذاب الروح والبدن.

١٤ ـ إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾.

١٥ ـ قيام الحجة الرسالية على جميع أهل النار.

١٦ ـ أن حجة الله على المكلفين بإرسال الرسل.

١٧ ـ أن كلَّ رسول مبعوثٌ من قومه، وبلسانهم.

١٨ ـ أن كلَّ رسول جاء بكتاب؛ لقوله: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٠٥٩٣) واللفظ له، والبخاري (٨٠٣١) ومسلم (٢٨٣٤).

١٩ ـ أن مضمون الرسالات: التبشير والإنذار، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

٢٠ ـ أن أبواب النار إذا انتهى الكفار إليها تفتح فيفجؤهم العذاب.

٢١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨ ـ ٩].

٢٢ ـ أن كلمة العذاب إنما تحق على الكافرين.

٢٣ ـ إثبات صفة الكلام لله تعالى.

٢٤ ـ احتجاج الكفار بالقدر، ولا حجَّة لهم فيه.

٢٥ ـ أن الكفار في النار خالدون.

٢٦ ـ أن من الخصال القبيحة الصادة عن الهدى: التكبر.

٢٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

٢٨ ـ ثناء الله على أهل الجنة بتقواه تعالى.

٢٩ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾.

٣٠ ـ أن أهل الجنة إذا انتهوا إلى الجنة يهنؤون ويبشَّرون.

٣١ ـ أن أبواب الجنة تهيَّأ للمتقين؛ فتفتح لهم قبل وصولهم إليها؛ لقوله: ﴿وَفُتِحَتْ﴾.

٣٢ ـ أن طِيب أعمال المتقين هو السبب في دخول الجنة.

٣٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤].

٣٤ ـ الإذن للمتقين بدخول الجنة، إكرامًا لهم وبشرى.

٣٥ ـ أن المتقين في الجنة خالدون.

٣٦ ـ الترغيب في أعمال المتقين، والترهيب من أعمال الكافرين.

ثم ذكر اللهُ ما يقوله أهل الجنة إذا دخلوها ورأوا ما فيها من النعيم المقيم والثواب العظيم؛ **فقال سبحانه:**

۞ ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان الإخبار من الله عن أهل الجنة بأنه يُثنون على ربهم أنْ صدَقهم وعده، فأحلَّهم دار كرامته، وأن يتبوؤوا من أرض الجنة ما شاؤوا مما خُصَّ لكل واحد منهم، ثم أثنى تعالى على أجر المؤمنين العاملين بطاعته، وأخبر تعالى عن حَفِّ الملائكة بالعرش مسبِّحين بحمد ربهم، وقد قضَى اللهُ بين الخلائق، فنطق كلُّ أحد بحمده؛ لكمال فضله وعدله، فله الحمد في الأولى والآخرة، وفي السماوات وفي الأرض، وفي كل وقت، وله الحمد أول الأمر وآخره.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الثناءُ الكامل على الله تعالى، وأل في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ للاستغراق؛ أي: جميع الحمد لله تعالى، وحَمْدهم لربهم لكمال صفاته وكمال إنعامه، وهذا الحمد منهم شكرٌ على النعمة العظمى التي خصَّهم اللهُ بها ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾؛ أي: حقَّق لنا وعده على ألسنة رسله ﷺ، وبما أنزل في كتبه كقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، ﴿وَأَوْرَثَنَا﴾؛ أي: أعطانا

وأنزلنا بمحض فضله ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: أرض الجنة، وقيل: أرض الدنيا، والأول هو المنقول عن السلف وأكثر المفسرين، ولم يَحْكِ ابنُ جرير غيره.

قوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ أي: ننزل منها ﴿حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ إشارة إلى سعتها، وأن لكل واحد منهم منزلًا في الجنة لا ينازعه فيه أحد، فهو يتصرف فيه كما يتصرف الوارثُ فيما يرثه ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾؛ أي: فنعم أجر العاملين بطاعة الله الجنةُ، وهذه الجملة ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ يحتمل أن تكون من تمام كلام أهل الجنة، فهي متصلة بثنائهم واغتباطهم، ويمكن أن تكون من كلام الله ترغيبًا في العمل وحثًّا عليه. والله أعلم.

ولما ذكر تعالى حال المؤمنين في الجنة أتبعه بذكر حال الملائكة، فقال سبحانه: ﴿وَتَرَى﴾ الخطاب لغير معين؛ أي: وترى ـ أيها الناظر ـ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾؛ أي: حال كونهم حافِّين ﴿مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ أي: محيطين بعرش الرحمن ﷻ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ الجملة حالية؛ أي: ينزِّهون الله عن كل نقص، والباء في ﴿بِحَمۡدِ﴾ للملابسة، وهي المصاحبة، فهو تسبيح مقترن بالحمد ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ هذا تأكيد لقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]، ﴿وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: ربِّ الخلائق كلِّها، ولم يُعيَّن قائل ذلك؛ ليفيد العموم، فجميعُ المخلوقات تحمده سبحانه، وتشهد له بالكمال والعدل والفضل، سبحانه لا إله إلا هو.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ اغتباط أهل الجنة عند دخولها بما أعطاهم الله من الكرامة.

٢ ـ حَمْد أهل الجنة ربَّهم أن صدقهم وعدَه بإدخالهم الجنة.

٣ ـ أن ما أعطاه الله أهل الجنة من النعيم مصداقُ وعده تعالى.

٤ ـ أن للجنة أرضًا هي قرار ساكنيها.

٥ ـ أن من نعيم أهل الجنة أنهم يتنقلون في نواحيها كما يشاؤون.

٦ ـ أن ثواب أهل الجنة جزاءٌ على أعمالهم.

٧ ـ أن هذا الثواب جدير بالمدح.

٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

٩ ـ الترغيب في العمل الصالح الذي يورث الجنة.

١٠ ـ الردُّ على الصوفية في قولهم: لا نعبد الله خوفًا من عذابه ولا رجاءً في ثوابه.

١١ ـ إثبات العرش.

١٢ ـ أن للعرش جوانب وأركانًا؛ لقوله: ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾.

١٣ ـ جواز استدارة الصفوف على الكعبة؛ لقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [غافر: ٧].

١٥ ـ الردُّ على من تأوَّل العرش بالمُلك.

١٦ ـ إثبات الملائكة.

١٧ ـ أن الملائكة يَحُفُّون عرش الرحمن، مسبِّحين بحمده.

١٨ ـ أن الملائكة عابدون لله لا يفترون عن عبادته، وأنهم ذوو عقول.

١٩ ـ تعظيم الملائكة لربهم.

٢٠ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

٢١ ـ أن الله إذا قضى بين العباد تحمده الخلائق: الملائكة، وأهل الجنة، وأهل النار.

٢٢ ـ أن قضاء الله بين العباد حقٌّ دائر بين الفضل والعدل، فهو تعالى يستحق عليه الحمد، سواءٌ أكان ثوابًا أم عقابًا.

٢٣ ـ إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٢٤ ـ أن الحمد كلَّه مستحَقٌّ لله.

٢٥ ـ التناسب بين مطلع السورة وخاتمتها، فافتُتحت بالتوحيد وعبادة الله وحده، وخُتمت بذكر الجزاء.

سورة غافر

هذه السورة مكية، وعدد آياتها خمس وثمانون، وتسمَّى سورة غافر؛ لقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ [٣]، وسورةَ المؤمن؛ لذِكر مؤمن آل فرعون.

وقد افتُتحت بحرفين من الحروف المقطَّعة، وهي أُولى آل حم من سور القرآن، وهي في مضمونها كالسورة التي قبلها الزُّمر، مدارها على أصول الدين الثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث.

فأما التوحيد: فتضمَّنته السورةُ بأنواعه الثلاثة، فالأول هو: توحيد الألوهية، أو توحيد العبادة، وشواهده من السورة: قوله تعالى في أولها: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي وسطها قوله: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، وفي آخرها: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾.

وأما توحيد الربوبية، فمن أول السورة قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾، وقوله عن الكفار: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾، إلى قوله: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ

ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾، وقوله عن المؤمن: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، وقوله تعالى في آخر السورة: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وأما توحيد الأسماء والصفات، فمن شواهده في أول السورة: قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾، وقوله تعالى عن الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، وقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ إلى قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، وقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وأما الأصل الثاني وهو النبوة: فمن شواهده في أول السورة: قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، وقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾، وقوله تعالى في وسط السورة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾، وقوله عن المؤمن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وقوله في آخرها: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

وأما الأصل الثالث وهو البعث: فمن شواهده في أول السورة: قوله

تعالى: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، وقوله: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾، وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾، وقوله في وسطها عن المؤمن: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله في آخر السورة: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

وتضمَّنت الآياتُ من (١) إلى (٦) التنويهَ والامتنانَ بإنزال القرآن، والثناءَ والتمجيدَ لله، وذمَّ المجادلين في آيات الله مع التحقير لهم، والتحذير من الاغترار بهم، وتهديدهم بما جرى على أمثالهم من قوم نوح والأحزاب من بعدهم، والإخبارَ بأن كلمة الله حقَّت على جميع الكافرين أنهم أصحاب النار.

وتضمَّنت الآياتُ من (٧) إلى (٩) الإخبارَ عن الملائكة حَمَلة العرش ومَن حول العرش أنهم يسبِّحون بحمد ربهم، ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا، وذكر تعالى دعاءهم للمؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ إلى قوله: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وتضمَّنت الآياتُ من (١٠) إلى (١٤) الإخبارَ عن توبيخ الذين كفروا على عصيانهم حين يُدعون إلى الإيمان فلا يؤمنون، وأن ذلك مقتٌ منهم لأنفسهم، وأن مقت الله أكبر، ثم أخبر تعالى عن اعترافهم على أنفسهم، وتمنِّيهم السبيل إلى الخروج مما هم فيه، ثم أخبر تعالى عن سبب هذا المصير، وهو الشرك والكفر، وذلك أن الحكم لله العليِّ

الكبير، وأنه تعالى هو الذي يُري عبادَه آياته، وينزل لهم من السماء رزقًا، ثم أمر تعالى بعبادته وإخلاص الدين له ولو كره الكافرون.

وتضمَّنت الآياتُ من (١٥) إلى (٢٠) الإخبارَ عن بعض صفاته تعالى وأفعاله؛ كعلوِّه وإلقاء الروح على مَن يشاء مِن عباده؛ لينذر يوم التلاق، والإخبارَ عن بعض أسماء القيامة وأحوالها وأهوالها، وعن تفرد الرب بالملك في ذلك اليوم، وسوء حال الظالمين، وأن الله يقضي بالحق، وأن آلهة المشركين لا تقضي بشيء، وأن الله هو السميع البصير، فهو تعالى المستحق للعبادة وحده، وكلُّ ما يدعى من دونه هو باطل.

وتضمَّنت الآياتُ من (٢١) إلى (٢٧) توبيخَ الكفار على عدم اعتبارهم بما رأوا من آثار المهلَكين، وقد كانوا أشدَّ منهم قوَّة، فأخذهم اللهُ بذنوبهم، وهو القوي الشديد العقاب، ثم أخبر تعالى عن إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وهامان وقارون، فكذبوه، فأخذهم اللهُ بالخسف والغرق، وأخبر عن طغيان فرعون حتى قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦]، فتعوَّذ موسى بربه من طغيان فرعون وكل متكبر سواه.

وتضمَّنت الآياتُ من (٢٨) إلى (٣٣) الإخبارَ عن مؤمن آل فرعون، وهو الرجل الذي كان يكتم إيمانه، وقد ناصح فرعونَ وقومه، ولكن فرعون أصرَّ على كفره وطغيانه، ثم أخبر تعالى عن المؤمن وإنذاره لقومه ما جرى على من قبلهم من أنواع العذاب، وتخويفه إياهم يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا يَعصِم الكفارَ من شرِّه عاصم.

وتضمَّنت الآياتُ من (٣٤) إلى (٣٧) ذِكرَ بعض ما قاله المؤمن لقومه وما أمر به فرعون هامان من إنشاء الصرح وغايته من ذلك، وما انتهى إليه أمره من السُّوء والخسار.

وتضمَّنت الآياتُ من (٣٨) إلى (٤٤) ذِكرَ بعض أقوال المؤمن في دعوته لقومه، وتذكيره لهم في أمر الدنيا والآخرة، ونهيهم عن الشرك، ودعوتهم إلى النجاة من النار، وتفويضه أمره إلى الله.

وتضمَّنت الآياتُ من (٤٥) إلى (٥٢) الإخبارَ بوقاية الرجل المؤمن من كيد فرعون وقومه، والإخبارَ بما حلَّ بآل فرعون من سوء العذاب في الدنيا، ثم مصيرهم إلى النار في البرزخ ويوم القيامة، ومحاجة الضعفاء للذين استكبروا وهم في النار، وطلبهم تخفيف العذاب ولو يومًا، وتوبيخ خزنة النار لهم، ثم أخبر تعالى بأنه سينصر رسله والمؤمنين معهم في الدنيا ويوم القيامة، في ذلك اليوم الذي لا ينفع الظالمين فيه معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

وتضمَّنت الآياتُ من (٥٣) إلى (٥٩) الإخبارَ بما آتى اللهُ موسى من العلم وما أورث بني إسرائيل من الكتاب، ثم أَمْر الله نبيَّه ﷺ بالصبر والاستغفار، والتسبيح بالعشي والإبكار، ثم أخبر عن المجادلين في آيات الله المستكبرين في أنفسهم، وأمر تعالى بالاستعاذة مما هم فيه، وأخبر بأن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ثم أخبر عن تباين حال الكافرين والمؤمنين، وأنهم لا يستوون، وشبَّههم بالأعمى والبصير، ثم أخبر عن الساعة وأنها آتية لا محالة، فلا يتطرق إلى مجيئها ريبٌ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

وتضمَّنت الآياتُ من (٦٠) إلى (٦٥) أمْرَ الله عباده بدعائه ووعده بالإجابة، وتهديدَ المستكبرين عن ذلك، والتذكيرَ بنعمتي الليل والنهار للسكن وطلب المعاش، وذلك من فضله تعالى على عباده، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، والتذكيرَ بربوبيته وإلهيته، والإنكارَ على المعرضين عن ذلك، ثم ذكَّر تعالى ببعض آياته ونعمه، من قرار الأرض، والرزق

من الطيبات، وذلك من آثار ربوبيته ورحمته بعباده، فتبارك اللهُ رب العالمين، وذكَر من صفاته أنه الحيُّ الذي لا يموت، وأنه الإله الحق الذي لا يستحق العبادة سواه، وأمر بدعائه وإخلاص الدين له، وأن الحمد كله له، مُثنيًا على نفسه، ومعلِّمًا لعباده.

وتضمَّنت الآياتُ من (٦٦) إلى (٦٨) أمْرَ الله نبيَّه ﷺ أن يخبر الناس بأن الله نهاه أن يعبد آلهة المشركين الذين يدعون من دون الله، وذلك لما جاءته الآياتُ من ربه، وأنه أُمر أن يكون من المسلمين المستسلمين لله بعبادته وحده لا شريك له، ثم أخبر تعالى ببعض دلائل ربوبيته وإلهيته وقدرته على البعث، وهو الاستدلال بالنشأة الأولى من تراب ثم من نطفة، وما بعد ذلك من أطوار خلق الإنسان، مع الإشارة إلى حكمته تعالى في ذلك، وأن مُرَدَّ ذلك إلى أنه إذا قضى أمرًا قال له: كن فيكون.

وتضمَّنت الآياتُ من (٦٩) إلى (٧٦) التعجيبَ من حال المجادلين في آيات الله؛ كيف يُصرفون عن الإيمان بها، وتهديدهم بما ينتظرونه من سوء العذاب، مع ذكر بعض صوره الهائلة المرعبة، مع التوبيخ لهم على شركهم، وجحدهم لذلك، وأنَّ سبب ذلك الشقاء اغترارُهم بالدنيا وتكبُّرهم، لذلك كان مصيرهم: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦].

وتضمَّنت الآياتُ من (٧٧) إلى (٨١) أمْرَ الله نبيَّه ﷺ بالصبر على أذى المشركين وإصرارهم على التكذيب، وأنهم راجعون إلى الله ليجزيهم، سواء أهلكهم اللهُ في حياته ﷺ أم بعد وفاته، ثم ذكَّره بما جرى على الرسل قبله، ممَّن قصَّ اللهُ خبره في كتابه أو لم يقصَّه، وفي ذلك تسلية له ﷺ، وليقتدي بأولئك المرسلين في صبرهم على ما لَقُوه

من تكذيب أقوامهم لهم، وعنادهم وأذاهم، مع بيان أنَّ أمْر الآيات إلى الله لا إلى الرسول، فما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فإذا جاء أَمْرُ الله بالفصل بين الرسل وأممهم قُضي بينهم بالحق بنصر الرسل وأتباعهم وهلاك أعدائهم، وهم المبطلون، لذلك كانوا هم الخاسرين: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨]، ثم ذكَّر تعالى بما أنعم على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وما لهم فيها من منافع الركوب والأكل وقضاء الحوائج عليها، كما خلق لهم من الفلك ما يركبون، كما يركبون من الأنعام، وكلُّ ذلك من آلائه وآياته؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١].

وتضمَّنت الآياتُ من (٨٢) إلى آخر السورة توبيخَ المشركين على سيرهم في الأرض ورؤية مصارع المكذبين من غير اعتبار لما جرى عليهم من عقوبات الله، وقد كانوا أكثر منهم وأشدَّ قوة، فما أغنى عنهم ذلك، وما منعهم بأس الله، ومِن جهلهم وسوء حالهم أن تكبروا على الرسل، ولـمَّا رأوا بأس الله آمنوا وقد فات أوان الإيمان، فلم يقبل منهم، فباؤوا بالخسران: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ التنويه من الله تعالى بالنعمة العُظمى على العباد، وهي تنزيل هذا القرآن من الله العزيز العليم، وذِكر بعض صفاته تعالى، وأنه المعبود الحق، وأن رجوع الخلائق إليه وحده.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿حمٓ﴾ هذان حرفان من الحروف المقطَّعة في أوائل السور؛ للتنبيه على إعجاز القرآن، والإشارة إلى أن هذا القرآن الذي أَعْجَز العربَ منظومٌ من جنس كلامهم، ومع ذلك لا يقدرون على أن يأتوا بسورة من مثله، وهم أهل البيان والبلاغة، فإذا ثبت عجزُهم تبيَّن لهم أن القرآن ليس كلام بشر كما يدَّعون، وقامت به الحجة عليهم، ولهذا كثيرًا ما تُتبَع هذه الحروف المقطَّعة بذكر القرآن، كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، وفي نظائرها من آل حم.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مبتدأ ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ خبره؛ أي: هذا الكتاب وهو القرآن، منزَّلٌ من الله تعالى على رسوله ﷺ، وسمي القرآنُ كتابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة، وفي مصاحف المؤمنين، فالكتاب اسم من أسماء القرآن،

و(أل) في الكتاب للعهد الذهني؛ أي: الكتاب المعهود والمعروف في أذهانكم، وفي الإخبار عن القرآن بأنه منزَّلٌ من الله ما يقطع بأنه حقٌّ وصدق وصواب، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ صفات للاسم الكريم ﴿ٱللَّهِ﴾ من حيث الإعراب، وهي نفسها أسماءٌ له تعالى تتضمَّن معاني الترغيب والترهيب؛ حثًّا على الإيمان، وتحذيرًا من الكفر والعصيان.

قوله سبحانه: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: القوي الذي له القدرة التامة والإرادة النافذة فلا يُغلب ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾؛ أي: الذي أحاط علمُه بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، و﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ صيغتًا مبالغة تدلَّان على كمال عزته تعالى وسعة علمه، وذكر ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في سياق إنزال القرآن يدل على أن هذا الكتاب يَغلب ولا يُغلب، وذكر ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ يدل على أنه مشتمل على العلوم النافعة.

قوله سبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾؛ أي: الذي يغفر ذنوب العباد مهما عظُمت وكثُرت ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ التوب مصدر تاب؛ أي: الذي يقبل التوبة من التائبين، ومجيء الواو بين الاسمين؛ لإفادة أنه تعالى يجمع لعبده التائب بين محو ذنبه، وقبول توبته، وهذا من كمال رحمته تعالى ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾؛ أي: شديد العذاب لمن يستحقه ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾؛ أي: صاحب الفضل والإحسان ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق سواه تعالى ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: إليه ـ وحده ـ المرجع والمآل في الآخرة، وتنتهي إليه جميع الأمور بالتدبير والتقدير، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

الفوائد والأحكام:

١ ـ الإشارة إلى إعجاز القرآن بذكر الحروف المقطَّعة ﴿حمٓ﴾.

٢ ـ أن كلام الله حروف وكلمات، ففيه: الردُّ على من قال: إن كلام الله معنًى نفسيٌّ قديمٌ.

٣ ـ أن القرآن منزَّل من عند الله.

٤ ـ أن القرآن لم يُنْزَل جملة، بل مفرَّقًا نجومًا.

٥ ـ أن من أسماء القرآن الكتاب.

٦ ـ إثبات علوِّ الله تعالى.

٧ ـ تصدير السورة بالأسماء المناسبة لمضمون السورة؛ لأنه مِن مقتضى هذه الأسماء؛ فإنزال القرآن من مقتضَى اسميه تعالى: العزيز والعليم، وأَخْذ الله للكافرين في الدنيا وعقابهم في الآخرة من مقتضَى عِزَّته، وما تضمَّنته السورة من العلوم المتنوعة وأنباء الغيب من مقتضَى اسمه العليم، كما قال تعالى في القرآن: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

٨ ـ إثبات هذين الاسمين الكريمين لله تعالى، وهما: العزيز والعليم، وما دلَّا عليه من صِفَتي العزة والعلم.

٩ ـ تضمُّن القرآن لمعنى هذين الاسمين من العزة والعلم.

١٠ ـ إثبات أسمائه تعالى: غافر الذنب، وقابل التوب، وشديد العقاب، وذي الطَّول، وما دلَّت عليه من صفة المغفرة، وقبول التوبة، وشدة العقاب، والغِنى والكرم.

١١ ـ أن مقتضى هذه الأسماء الكريمة: الخوف من الله، وحسن الظن بالله، والتوكل عليه.

١٢ ـ الترغيب في التوبة من الذنوب.

١٣ ـ إثبات كرم الله وغناه.

١٤ ـ التحذير من أسباب عقاب الله.

١٥ ـ تفرُّده تعالى بالإلهية.

١٦ ـ أن مصير العباد ومصير الأمور إلى الله.

١٧ ـ إثبات البعث والجزاء.

لمَّا نوَّه اللهُ بإنزال القرآن العظيم من عنده، وما يُشير إليه ذلك من اشتماله على جميع العلوم النافعة، وحصول الاهتداء التام به، ذكر أحوال المجادلين فيه وبيَّن عاقبتهم؛ **فقال سبحانه:**

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ ذمَّ المجادلين في آيات الله مع التحقير لهم، والتحذير من الاغترار بهم، وتهديدهم بما جرى على أمثالهم من قوم نوح والأحزاب من بعدهم، وتسليةَ النبي ﷺ، والإخبارَ بأن كلمة الله حقَّت على جميع الكافرين أنهم من أهل النار.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما يخاصم في آيات الله وهي آيات القرآن الدالة على توحيده تعالى وتفرُّده بالإلهية، بعد وضوح هذه الآيات وظهور إعجازها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: إلا الكفار الجاحدون لآيات الله المكذبون لرسله، فهم الذين يجادلون فيها، والجدال في الآيات يتضمَّن ما حكى اللهُ عنهم من تكذيبها، ونفي أن تكون من عند الله، ونسبتها إلى الشعر والكهانة وأنها أساطير الأولين، إلى غير ذلك من المطاعن، ولهذا جُعل مجرور الحرف ﴿فِيٓ﴾ الآياتِ نفسَها ليجمع الجدال بأنواعه، وسمِّي القرآنُ في الآية السابقة

بـ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ ثم بآيات الله في هذه الآية؛ تفنُّنًا في الأسلوب، ولأن في ذكر الاسم الشريف الذي أُضيفت إليه الآيات، تنويها بالقرآن، وهو مُؤذِن بقبح جدالهم وكفرهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾؛ أي: فلا يغرُرْك تنقُّلهم في البلاد للتجارات والمكاسب، يعني مع سلامتهم وهم باقون على كفرهم؛ فإن هذا من إمهال الله لهم واستدراجه إياهم، فهم بهذا أشقى الناس وأسوؤهم عاقبة، والمراد: كفار قريش؛ فإنهم كانوا أصحاب أموال وتجارة، وعُرفوا برحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن والشام، والخطاب في قوله: ﴿فَلَا يَغُرُّكَ﴾ للنبي ﷺ، والمقصود غيرُه ممن يتأتَّى منه الاغترار بإمهال الكافرين.

قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل هؤلاء المشركين من أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: والأمم الذين تحزَّبوا؛ أي: تجمَّعوا على الرسل وعادوهم من بعد قوم نوح، كعاد وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وقوم فرعون ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ﴾؛ أي: وهمَّت كلُّ أمة كافرة برسولهم ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾؛ أي: ليقتلوه، كما ذكر الله عن ثمود قوم صالح: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]، وكما فعل قومُ إبراهيم حين ألقوه في النار، وكما تآمر كفارُ قريش في دار الندوة على قتل رسول الله ﷺ، ورأوا أن يجمعوا من كل قبيلة رجلًا فيضربوه بالسيف دفعة واحدة، فيتفرق بهذا دمُه بين القبائل، ويعجز قومه عن طلب الثأر، وحفظ اللهُ نبيَّه من كيدهم بمكرٍ مكَره بهم، وكان ذلك سبب خروجه ﷺ إلى مكة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فأعداء الرسل لم يكتفوا بتكذيبهم فحسب، بل تضاعفت عداوتُهم، وآذوهم بأنواع الأذى التي أعلاها القتل ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي: ليبطلوا به الحق البيِّن الذي جاءت به الرسل ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: فأهلكتُهم بالعذاب المستأصل، وهو تفريع على جميع ما نسب إلى كفار الأمم السالفة من التكذيب، والهَمِّ بالأخذ، والمجادلة بالباطل، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (كيف) خبر كان، والاستفهام للتعظيم والتهويل؛ أي: فانظروا كيف كان عقابي لهم؛ أي: كان على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف، وكانوا يرون آثار المعذبين ويمرون بديارهم الخاوية في أسفارهم، وفي ذلك عبرة لو اعتبروا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ الكاف في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ اسم بمعنى مثل، وهي في محل نصب مفعول مطلق؛ أي: وكما وجبَت كلمةُ الله بعذاب الأمم السابقة وجبت كلمتُه تعالى على الكفار أهل مكة الذين يجادلون في آيات الله، وكلمتُه هي ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: الملازمون لها، فجملة ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ تفسير لقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، لهذا أُعربت بدلًا، وهو بدل اشتمال؛ أي: أنَّ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ مشتملة على أن الذين كفروا هم أصحاب النار.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الجدال في آيات الله من شأن الكفار.

٢ ـ أن الجدال في آيات الله كفر.

٣ ـ الفرق بين الجدال في آيات الله والجدال بآيات الله، فالأول

باطل؛ لأنه تكذيب ومعارضة، والثاني حقٌّ؛ لأنه احتجاج في الدعوة.

٤ ـ أن كفر المجادلين في آيات الله عن عناد.

٥ ـ النهي عن الاغترار بتمكين الكفار وتقلبهم في البلاد.

٦ ـ أن من مكر الله بالكفار: تمكينَهم من التنقل في البلاد.

٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧].

٨ ـ إعذار الله إلى الخلق بإرسال الرسل.

٩ ـ أن نوحًا أول الرسل.

١٠ ـ أن الله أرسل لكل أمة رسولًا؛ لقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ﴾.

١١ ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ همُّوا بأخذ الرسول فأخذهم الله.

١٢ ـ تسلية النبي ﷺ بتكذيب الرسل قبله، وبالمكر بأعدائه.

١٣ ـ تهديد الكفار بما جرى على من قبلهم.

١٤ ـ غلبة الكفر والتكذيب على البشرية.

١٥ ـ مؤاخذة الإنسان بالهمِّ بالشر.

١٦ ـ إطباق الأمم على عداوة مَن أُرسلوا إليهم، وسعيُهم في إيذائهم وقتلهم.

١٧ ـ أن دأب الكفار الجدالُ بالباطل.

١٨ ـ أن قصدَهم بذلك ردُّ الحق.

١٩ ـ أن شبهات الكفار حجج باطلة.

٢٠ ـ أن ما ذُكر من أفعال الكفار وأقوالهم هو سبب أَخْذ الله لهم بأنواع العقوبات.

٢١ ـ أن عقاب الله للكافرين عظيم هائل؛ لقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

٢٢ ـ الحذر من المعاجلة بالعقوبة.

٢٣ ـ إثبات الكلام لله ﷻ.

٢٤ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

٢٥ ـ أن حكم الله بالعذب واقع على الكافرين؛ لقوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

٢٦ ـ سبْق القَدَر بأن الكفَّار أصحاب النار.

٢٧ ـ إثبات النار، وأن الكفار خالدون فيها، وأنهم أصحابها، وأنها معدَّة لهم، نعوذ بالله من النار، ومن حال الكفار.

٢٨ ـ التحذير من الكفر الموجب للخلود في النار.

﴿ قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن الملائكة المقربين، وهم حَمَلة العرش ومَن حوله أنهم يسبحون بحمد الله ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا، وهذا من محبة الملائكة لهم، وموالاتهم إياهم، فهم ـ؛ أي: الملائكة ـ مع المؤمنين على ضد حال الكافرين مع المؤمنين، ففيه تسلية للمؤمنين، وشرح لصدورهم، وتثبيت لقلوبهم، وبهذا تظهر مناسبة الآيات لما قبلها.

▩ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ مبتدأ، والخبر: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ إلخ، والعرش هو عرش الرحمن، وأصل العرش: سرير الملك، والعرش أكبر المخلوقات وأوسعها، وهو سقف الجنة، والله قد استوى عليه بعد خلق السماوات والأرض استواءً يليق به تعالى؛ أي: علا عليه وارتفع، وهذا العرش تحمله الملائكة، وهم من الملائكة المقربين.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾؛ أي: ومَن حول العرش من الملائكة الحافِّين بالعرش؛ أي: المحيطين به، فهؤلاء الملائكة من الحاملين للعرش والمحيطين به ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

﴿رَبِّهِمْ﴾؛ أي: ينزِّهون اللهَ عن كل نقص، والباء في ﴿بِحَمْدِ﴾ للملابسة وهي المصاحبة؛ أي: يسبحونه تسبيحًا مقترنًا بالحمد.

قوله سبحانه: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: يؤمنون بالله إيمانًا كاملًا، ووصفُهم بالإيمان مع أنه ذكر تسبيحهم؛ لإظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: يطلبون المغفرة للمؤمنين، قائلين في دعائهم ﴿رَبَّنَا﴾؛ أي: يا ربَّنا، وهذا توسُّلٌ إلى الله بربوبيته وهو من أدب الدعاء ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾: ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ منصوبان على التمييز المحوَّل عن الفاعل؛ أي: وسِعَتْ رحمتُك كلَّ شيء، وأحاط علمُك بكل شيء؛ أي: فتعلم أحوال المؤمنين وأعمالهم، وأنت أهلٌ أن ترحمهم وتغفر لهم ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾؛ أي: اصفح عن المسيئين الذين رجعوا عن الشرك والمعاصي؛ أي: اغفر لهم ما تابوا منه ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾؛ أي: دين الإسلام ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: اجعل بينهم وبين عذاب النار وقاية؛ أي: احفظهم منه.

ويقولون أيضًا: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ كرَّروا قولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ لتعدد المطلوب؛ أي: وأدخلهم جنات الإقامة والخلود، مِن: عَدَن بالمكان يعدِن؛ إذا أقام فيه، وعلى هذا فـ﴿عَدْنٍ﴾ ليس اسمًا مخصوصًا بجنة من الجنات، بل هو وصف عام لجميع الجنات، فكلها جنات عدن، كما يفيده اشتقاق المادة، ورجحه ابن القيم[1].

وجُمعت الجنَّاتُ باعتبار أنواعها، وتأتي مفردة في القرآن باعتبار الجنس ﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ في كتبك وعلى ألسنة رسلك ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾؛ أي: وأدخل معهم الصالحين من الآباء

(١) «حادي الأرواح» (ص٩٨).

والأزواج والذرية؛ لتكتمل فرحتهم ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ وحدك ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: ذو القوة الذي لا يُغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: ذو الحكمة في أقواله وأفعاله وشرعه وقدَره وجزائه، فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

قوله سبحانه: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذا من تمام دعاء الملائكة للمؤمنين؛ أي: وقِهم السيئات؛ أي: واحفظهم من جزاء السيئات وهو العذاب ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: ومَن تقِه العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذْ يُجزى كلٌّ بعمله ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ بفضلك ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وقاية السيئات والرحمة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ أي: الذي لا فوز أعظم منه، وهو النجاة من العذاب، والفوز بجزيل الثواب.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات عرش الرحمن.

٢ ـ أن للعرش ذاتًا، وأنه قائم بنفسه، وأن له حمَلة، ففيه: الرد على من تأوَّل العرش بالملك.

٣ ـ أن من الملائكة حملةَ العرش والمُطيفين بالعرش.

٤ ـ فضيلة الملائكة الذين يحملون العرش والذين حوله؛ لثناء الله عليهم، واختصاصهم بالقرب وبالربوبية الخاصة.

٥ ـ أن الملائكة دأبهم التسبيح بحمد ربهم، والاستغفار للمؤمنين لا لأنفسهم؛ لأنهم لا يذنبون.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

٧ ـ استحباب حَمْد الله وذكره قبل الدعاء، ويشهد له قولُه ﷺ: «**إذا صلى** [أي: دعا] **أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه، ثم ليُصلِّ**

على النبي، ثم لْيدع بعد بما شاء»(١).

٨ ـ بشارة المؤمنين باستغفار الملائكة لهم، ودعائهم لهم.

٩ ـ فضل الإيمان والعمل الصالح والتوبة وحسن عواقبها.

١٠ ـ استحباب استغفار المؤمن لأخيه المؤمن؛ أُسوة بالملائكة، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

١١ ـ تنزيه الله عن كل نقص، وإثبات جميع المحامد له تعالى.

١٢ ـ أن الملائكة عبيد لله مربوبون مدبَّرون.

١٣ ـ أنهم يدعون للمؤمنين بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾.

١٤ ـ اشتمال هذا الدعاء على طلب المغفرة، ودخول الجنة، والنجاة من عذاب الجحيم.

١٥ ـ أن هذه الآية مفسِّرة لآية الشورى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

١٦ ـ إثبات صِفَتي العلم والرحمة لله تعالى وسعتهما.

١٧ ـ التوسل إلى الله بربوبيته، وسعة علمه ورحمته، ووعده وعزته وحكمته.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٣٩٣٧) وأبو داود (١٤٨١) والترمذي (٣٤٧٧) عن فَضالة بن عبيد ﷺ. قال محققو المسند: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير عمرو بن مالك الجنبي، فقد روى له أصحاب السنن والبخاري في الأدب المفرد، وهو ثقة».

١٨ ـ إثبات الاسمين الكريمين لله تعالى، وهما: العزيز والحكيم، وما تضمَّناه من صِفَتي العزة والحكمة.

١٩ ـ مراعاة الترتيب الوجودي في الكلام؛ لقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾.

٢٠ ـ دعاؤهم بوقاية السيئات، وهي عقوبات الذنوب.

٢١ ـ أن من أدخله الله الجنات ووقاه السيئات فقد رحمه الله، وفاز الفوز العظيم.

٢٢ ـ أن الجنة جنَّات.

٢٣ ـ وعد أهل الجنة بالخلود فيها.

٢٤ ـ فضل الله على المؤمنين في مبدأ أمرهم وآخره في الدنيا والآخرة.

٢٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٦].

٢٦ ـ الاحتراس في الكلام والدعاء من الإطلاق والتعميم فيما لا يصحَّان فيه؛ لقول الملائكة في دعائهم: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾.

٢٧ ـ إثبات الجنة والنار وعِظَم شأنهما.

٢٨ ـ مشروعية الدعاء بدخول الجنة والنجاة من النار.

٢٩ ـ استحباب البسط والتفصيل في الدعاء في الجملة.

٣٠ ـ الردُّ على الجبرية، وذلك بإضافة التوبة والاتباع إلى المؤمنين.

ولما ذكر تعالى بعض أحوال الكفار وأعمالهم من مجادلتهم في آيات الله، وأخبر أن مصيرهم النار، ذكر ما يقولون وما يقال لهم يوم القيامة؛ **فقال سبحانه:**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبرَ عن توبيخ الذين كفروا على امتناعهم عن الإيمان حين دُعوا إليه، وأنهم يمقتون أنفسهم حينئذ، وأخبر تعالى أن مقته لهم أكبر من مقتهم لأنفسهم، وذكر تعالى اعترافهم على أنفسهم، وتمنِّيهم السبيل إلى الخروج مما هم فيه، ثم أخبر سبحانه عن سبب هذا المصير، وهو الشرك والكفر، وذلك أن الحكم لله العليِّ الكبير.

▩ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ﴾؛ أي: تناديهم الملائكة وهم في النار؛ توبيخًا لهم وتقريعًا حينما يمقتون أنفسهم، ولم يبيِّن سبحانه المنادي بل أخبر عن مضمون النداء؛ لأنه المقصود ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ اللام للابتداء، وتفيد التوكيد والمقت أشدُّ البغض، وهو مصدر مضاف إلى فاعله، ومفعوله محذوف؛ أي: لَبُغضُ اللهِ الشديدُ إيَّاكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾؛ أي: حين تُدعون إلى الإيمان مرارًا فكفرتم ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: أعظمُ وأكبرُ من

بغضكم لأنفسكم اليوم[١].

ثم ذكر تعالى جوابهم فقال: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾؛ أي: موتتين اثنتين؛ فالموتة الأولى حين كانوا نُطَفًا في الأصلاب، وأجنَّة في الأرحام، والثانية هي الموتة المعروفة في الدنيا حين حلول الأجل ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ حياتين اثنتين؛ فالحياة الأولى حين نفخ الروح فيهم، والثانية بالبعث من القبور، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾؛ أي: أقررنا بذنوبنا من الكفر، وتكذيب الرسل، وجحد البعث، وهذا منهم اعتراف بالبعث، ولكنه لا ينفعهم الآن ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾؛ أي: فهل بالإمكان بعد هذا الاعتراف أن نخرج من النار؛ أي: فنرجع إلى الدنيا فنطيع أمرك، والاستفهام للتمني، وهيهات أن يجابوا! ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وجواب طلبهم معلوم، وهو: لا سبيل إلى الخروج، كما يدل عليه التعليل في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُم﴾؛ أي: ذلكم العذاب والخلود في النار ﴿بِأَنَّهُ﴾ الباء سببية، والهاء ضمير الشأن ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾؛ أي: لأنَّ شأنكم في الدنيا إذا دُعيتم إلى توحيد الله وعبادته كفرتم ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾؛ أي: وإن يُجعلْ له شريك تؤمنوا بالشرك

---

(١) قوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ متعلق بـ ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾، ولا يضر ـ على الصحيح ـ الفصل بينهما بالخبر ﴿أَكْبَرُ﴾؛ لأنه يتوسع في الظروف ما لا يتوسع في غيرها. وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ كلا المقتين في الآخرة، فتكون ﴿إِذْ﴾ تعليلية أي: لأنكم دُعيتم، أو تعلق بمقدَّر، أي: اذكروا إذ تدعون، والأول هو الصحيح، وهو الموافق للمنقول عن السلف في تفسير الآية، وجرى عليه ابن جرير وابن كثير والبغوي.

وتصدقوه ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾؛ أي: فالقضاء فيكم بهذا العذاب لله وحده، وهو تعالى لا يقضي إلا بالحق، وبما تقتضيه الحكمة ﴿ٱلْعَلِيِّ﴾؛ أي: العليِّ بذاته وقهره وقدره ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾؛ أي: ذو الكبرياء والعظمة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ توبيخ الكفار يوم القيامة على إيثار الكفر على الإيمان حين دُعوا إليه.

٢ ـ أن ذلك مقت منهم لأنفسهم؛ فإن ذلك أعظم سبب لما يضرهم.

٣ ـ أن مقت الله لهم أعظم من مقتهم لأنفسهم.

٤ ـ إثبات صفة المقت لله تعالى، وأنه يمقُت الكافرين، والمقت أشدُّ البغض.

٥ ـ أن الكافر قد يكره نفسه؛ لسوء تصرفاته.

٦ ـ اعتراف الكفار بربوبيته تعالى؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾.

٧ ـ أن إيثار الكفر على الإيمان يكون من الإنسان.

٨ ـ الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾.

٩ ـ اعتراف الكفار بذنوبهم يوم القيامة.

١٠ ـ أن الكفار وغيرهم مرُّوا بموتتين وحياتين.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

١٢ ـ أن الكفار يسألون الخروج من النار، ومن الخزي والعار.

١٣ ـ شدة حسرتهم يوم القيامة.

١٤ ـ أن سبب هذا الشقاء إيثار الشرك على التوحيد.

١٥ ـ إثبات الأسباب.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

١٧ ـ وجوب التوحيد وتحريم الشرك.

١٨ ـ أن الحكم كلَّه لله في الدنيا والآخرة شرعًا وقدرًا وجزاء.

١٩ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما العليُّ والكبير، وما تضمَّناه من صِفَتي العلو والعظمة.

ولما ذكر سبحانه ما يصيب الكفار يوم القيامة من العذاب ذكر ما يدل على أنه لا عذر لهم؛ فقد أراهم من آياته ما قامت به الحجة عليهم؛ **فقال سبحانه:**

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبرَ بأن الله هو الذي يري عباده آياته، وينزل لهم من السماء رزقًا، والأمْرَ بعبادته تعالى، وإخلاص الدين له ولو كره الكافرون، والإخبارَ عن بعض صفاته تعالى وأفعاله؛ كعلوِّه وإلقاء الروح على من يشاء من عباده؛ لينذر يوم التلاق، والإعلامَ ببعض أسماء القيامة وأحوالها وأهوالها، وعن تفرُّد الرب بالملك في ذلك اليوم.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: هو ـ تعالى ـ الذي يريكم عيانًا دلائل ربوبيته، وكمال قدرته، وتفرُّده بالخلق والملك؛ كالسماوات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والبحار والسحاب، والرياح والجبال والأشجار، وغيرها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ﴾ إنزالًا مستمرًا بحسب الحاجة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب ﴿رِزْقًا﴾؛ أي: مطرًا يكون سببًا لرزقكم، وهو من جملة الآيات، وأفرده بالذكر؛ لأنه

من أعظم الآيات المنبئة بحكمته ورحمته تعالى وفضله على خلقه ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾؛ أي: وما يعتبر ويتعظ بهذه الآيات الباهرة ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾؛ أي: إلا من يرجع إلى ربه بالتوبة والطاعة، فهؤلاء هم المنتفعون بهذه الآيات، ولهذا حصر التذكر فيهم.

ولما أنبه اللهُ على آياته الكونية أمَر بعبادته؛ لأنه المستحق لذلك؛ فقال سبحانه: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: اعبدوه تعالى ـ أيها المؤمنون ـ وسلُوه حاجاتكم، مخلصين له العبادة من شوائب الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: ولو أبغض الكافرون عبادتكم وإخلاصكم واغتاظوا لذلك.

ثم ذكر تعالى ثلاثًا من صفات كبريائه وعظمته، فقال سبحانه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾؛ أي: الذي ارتفعت درجاته؛ لعلوِّه فوق خلقه، فهو تعالى فوق جميع المخلوقات ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: صاحب العرش العظيم، وتخصيص العرش بالذكر وإضافة الربوبية إليه كما في قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] لشرفه، ولأنه سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وقد وصفه اللهُ بأنه عظيم وكريم ومجيد ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾؛ أي: ينزل الوحي، ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وسمَّاه اللهُ روحًا؛ لتوقُّف الحياة الحقيقية عليه، كما سماه نورًا؛ لتوقف الهداية عليه ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: من كلامه تعالى، و﴿مِنْ﴾ للتبعيض؛ لأن ما ينزله اللهُ على الرسول بعضُ كلامه تعالى ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ وهم الذين اصطفاهم الله للرسالة من الأنبياء والمرسلين؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]. ثم ذكر الحكمة من هذا الإلقاء فقال سبحانه: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾؛ أي: ليخوِّف الناس يومَ القيامة، فـ ﴿يَوْمَ﴾ مفعول

ثانٍ للإنذار وليس ظرفًا له؛ لأن الإنذار لا يكون في ذلك اليوم، وإنما يكون في الدنيا، وسمِّي يومُ القيامة يومَ التلاق؛ لأنه يتلاقى فيه الأولون والآخرون وأهل السماوات وأهل الأرض على صعيد واحد، فيُسمِعهم الداعي، ويَنفُذُهم البصر.

قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ هذا بدل من قوله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾؛ أي: ظاهرون لا يستُرهم شيء و﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾؛ أي: من أحوالهم وأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، ثم يقول الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: لمن الملك والتصرف في هذا اليوم، فـ(أل) في ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ للعهد الحضوري، ثم يجيب اللهُ نفسه ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، وهذا السؤال وجوابه فيه تقرير وتوقيف للخلق جميعًا على هذه الحقيقة، وفيه تخذيل وتبكيت للمشركين ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾؛ أي: المتفرد بالربوبية والملك الذي لا نظير له ولا شبيه ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾؛ أي: الغالب بعزَّته وكمال اقتداره، و﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ صيغة مبالغة تفيد كمال اتصافه تعالى بصفة القهر، فهو ربُّ الخلائق الذي قهرها بقدرته تعالى فذلَّت له وانقادت، فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه تعالى.

وتخصيص الملك لله في ذلك اليوم مع أن الملك والأمر كلَّه لله في الدنيا والآخرة؛ لأن لبعض البشر ملكًا في الدنيا، أما في الآخرة فلا ملك إلا لله وحده ﷻ، ويتلاشى ملكُ غيره، وشواهد هذا المعنى في القرآن كثيرة، كقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله يُري عباده الآيات؛ لإقامة الحجة عليهم، وهي الآيات الكونية.

٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

٣ ـ أن الله ينزِّل لعباده رزقًا عظيمًا في حقيقته وكثرته، مما يكون قوامًا للأبدان والأرواح؛ أي: دينيًّا ودنيويًّا.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

٥ ـ منَّة الله على عباده بإنزال الرزق لهم.

٦ ـ أن الإنابة إلى الله سببٌ للتذكُّر بالآيات وشكر النعم.

٧ ـ الترغيب في تذكُّر الآيات والتفكُّر فيها.

٨ ـ أنَّ مَن لا ينيب إلى الله لا ينتفع بالآيات.

٩ ـ أَمْرُ المؤمنين بدعاء الله، وإخلاص الدين له تعالى.

١٠ ـ مراغمة الكافرين بذلك.

١١ ـ مخالفة الكافرين في أهوائهم.

١٢ ـ الإرشاد إلى مخالفة أهوائهم.

١٣ ـ إثبات علوِّ الله.

١٤ ـ أن من أسمائه تعالى: رفيع الدرجات، وذا العرش.

١٥ ـ ارتفاع معارج السماء المنتهية إلى ما فوق السماء السابعة، مما لا يعلم أبعاده إلا الله.

١٦ ـ إثبات العرش.

١٧ ـ فضل العرش؛ لإضافة الربوبية إليه، فإن قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: ربُّ العرش.

١٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥].

١٩ ـ أن عرش الرحمن مستقر في أذهان المؤمنين، فـ (أل) فيه للعهد الذهني.

٢٠ ـ إثبات عظمة الله؛ لأنه ذو العرش العظيم.

٢١ ـ إطلاق اسم الروح على الوحي.

٢٢ ـ أن الوحي أصل حياة القلوب والأرواح.

٢٣ ـ أن الله يلقي الوحي على من يشاء من عباده، وهم الرسل.

٢٤ ـ إثبات النبوَّات.

٢٥ ـ إثبات منَّة الله على من يشاء بالنبوة.

٢٦ ـ أن النبوة تكون بالاصطفاء من الله؛ ففيه: الردُّ على من قال: إن النبوة مكتسبة، من الفلاسفة ومن تبعهم.

٢٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، وآية النحل هذه تفسير لآية غافر.

٢٨ ـ إثبات الكلام لله تعالى؛ لقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾.

٢٩ ـ إثبات الأمر الشرعي.

٣٠ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٣١ ـ إثبات العبودية العامة؛ لقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٣٢ ـ أن الرسل عبادٌ لله، اصطفاهم الله للرسالة، ففيه: الردُّ على الغلاة في الرسل الذين يجعلون لهم بعض ما يختص بالله.

٣٣ ـ الغاية من إرسال الرسل، وهي إنذار الناس يوم القيامة.

٣٤ ـ التعليل في أفعاله تعالى؛ لقوله: ﴿لِيُنذِرَ﴾.

٣٥ ـ الإرشاد إلى الجمع بين التعليم والإنذار.

٣٦ ـ أن من أسماء يوم القيامة: يوم التلاق.

٣٧ ـ أن الخلق يتلاقون في ذلك اليوم.

٣٨ ـ الحذر من أسباب الفضيحة في ذلك اليوم.

٣٩ ـ إثبات قدرة الله؛ لجمعه الخلائق في ذلك اليوم.

٤٠ ـ أن الناس يوم القيامة بارزون مكشوفون، لا يستتر منهم أحد.

٤١ ـ أنه لا يخفى على الله منهم شيء من ظواهرهم وبواطنهم.

٤٢ ـ تهديد الكفار بإحاطة علم الله بهم.

٤٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١].

٤٤ ـ أن الله يقول يوم القيامة: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، فيجيب سبحانه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

٤٥ ـ بطلان مُلك كل مَلِك من الخلق في ذلك اليوم.

٤٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦].

٤٧ ـ إثبات الاسمين الكريمين: الواحد والقهَّار، وما دلَّا عليه من الوحدانية والغلبة.

ولما ذكر سبحانه أن المُلْك في ذلك اليوم له وحده لا يَشركه فيه أحد، أخبر بما يكون فيه؛ **فقال سبحانه:**

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبرَ عن جزاء العاملين يوم القيامة، وذكر بعض أهواله، وسوء حال الظالمين، وأن الله يقضي بالحق، وأن آلهة المشركين لا تقضي بشيء، فهو تعالى المستحق للعبادة وحده، وكل ما يدعى من دونه باطل، وأنه هو السميع البصير.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ هذا من تمام كلامه تعالى الذي يقوله في ذلك اليوم ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾؛ أي: بما عملت في الدنيا من خير أو شر ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾؛ أي: لا ظلم لأحد في هذا اليوم بنقص ثواب، أو زيادة عذاب، و﴿لَا﴾ نافية للجنس، فتفيد أنه لا يقع ظلم في ذلك اليوم بوجه من الوجوه؛ لكمال عدل الرب، وعجز الخلق، فلا يقع ظلمٌ من الله؛ لعدله تعالى، ولا ظلمٌ من العباد؛ لعجزهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ أي: سريعٌ حسابُه لكمال قدرته، وكمال

علمه بأعمال عباده، والحساب هو: المحاسبة والحكم بالجزاء.

قوله سبحانه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾؛ أي: وخوِّفهم ـ أيها الرسول ـ يومَ القيامة، وسمَّاها اللهُ الآزفة؛ لقُربها، من أَزِف السفرُ إذا دنا وقرُب، فالقيامة قريبة، وقد وُصِفت بالقُرب في آيات كثيرة من القرآن؛ قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، فهي قريبة وإن ظن الناسُ أنها بعيدة، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦ ـ ٧].

قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾؛ أي: حين تكون القلوبُ عند الحناجر، جمع حَنجَرة، وهي الحلقوم، وهذا كناية عن شدة فزعهم وجزعهم في ذلك اليوم العصيب الذي يَشيب لهوله الولدان، وذهب طائفة من المفسرين إلى أن الكلام على الحقيقة، يعني أن القلوب من شدة الذُّعر ترتفع عن أماكنها إلى حلوقهم، والله أعلم.

والقلوب المخبَر عنها هي قلوب الكفار المعبَّر عنهم في الآية بالظالمين؛ فالحديث عنهم، أما قلوب المؤمنين فهي مطمئنة في ذلك اليوم، كما يدل عليه آياتُ القرآن، كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨ ـ ٤٢].

قوله سبحانه: ﴿كَٰظِمِينَ﴾؛ أي: ساكتين ممتلئين غمًّا وكربًا لا يظهرونه، بل يتردد في أجوافهم ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: ليس للكافرين يومئذ ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: قريب أو صديق يهمُّه أمرهم؛ لانقطاع العلائق في ذلك اليوم ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعٍ﴾؛ أي: وليس لهم شفيع تُقبل

شفاعته لو وُجد، فالوصف لا مفهوم له. المعنى: لا شفاعة ولا إجابة.

أكثر اللهُ ﷻ في كتابه المجيد من ذكر القيامة وأهوالها، وسمَّاها بأسماء كثيرة؛ ليأخذ العبادُ حِذرَهم، ويستعدوا لها بالعمل الصالح، والأمر بالإنذار في الآية وإن كان خطابًا للنبي ﷺ فإنه مخاطَبٌ به ـ أيضًا ـ العلماء والدعاة والمعلمون؛ فإنَّ عليهم أن يذكِّروا الناس الآخرة؛ لِتَرِقَّ القلوب، وتنقاد النفوس.

ثم ذكر تعالى إحاطةَ علمه بكل شيء وإن كان في غاية الخفاء، فقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ هذا من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: الأعين الخائنة، وخيانة العين مُسارقتها النظر إلى كل ما نهى الله عنه، فالله تعالى يعلم ذلك ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾؛ أي: ويعلم ما تُكِنُّه الصدورُ من النوايا والأسرار، فيجزي كلَّ نفس بما كسبت.

وفي قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ إشارة إلى أنه تعالى عليم بأفعال الجوارح كلها، وفي قوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ إشارة إلى علمه بجميع أعمال القلوب، ومجموع ذلك منبئٌ بأن قضاءه جلَّ وعلا حقٌّ لا ظلم فيه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: يحكم بالعدل ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: والذين يدعوهم المشركون من الأوثان والأصنام ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾؛ أي: لا تقدر على القضاء لعجزها؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، فهي في غاية النقصان، وفي الكلام تهكُّم بها؛ لأن الجماد لا يُقال في حقه: يقضي أو لا يقضي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾؛ أي: السميع لكل الأصوات في جميع الأوقات ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾؛ أي: البصير لجميع المبصَرات لا يخفى عليه منها شيء، وهذا كالتأكيد لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن يوم القيامة يوم الجزاء.

٢ ـ إثبات الجزاء.

٣ ـ أن توفية الجزاء على الأعمال إنما يكون يوم القيامة.

٤ ـ أن الجزاء عامٌّ لكل نفوس المكلَّفين.

٥ ـ أن كلًّا يجزى بما كسب.

٦ ـ إثبات الأسباب الشرعية؛ لقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾.

٧ ـ أن جزاءَ الله للعباد لا ظلم فيه.

٨ ـ أنه لا يظلِم أحدٌ أحدًا في ذلك اليوم.

٩ ـ إثباتُ كمال العدل لله تعالى.

١٠ ـ الردُّ على الجبرية.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

١٢ ـ أن من أسماء الله: سريع الحساب.

١٣ ـ إثباتُ الحساب.

١٤ ـ احتسابُ الأجر في العمل.

١٥ ـ إثبات كمال قدرة الله وعلمه تعالى.

١٦ ـ أن تأخير الحسم في قضاء حقوق العباد نوعٌ من الظلم، بما يؤديه عدم ذلك من أضرار تعود على صاحب الحق.

١٧ ـ تحريم كلِّ نظام يؤدي إلى تأخير البتِّ في القضايا، وفي حكم ذلك: الأنظمة المتعلقة بمعاملات الناس، فيحرُم على الموظف تأخير ما هو مسؤولٌ عنه من المعاملات.

١٨ ـ أَمْر الله نبيَّه ﷺ أن ينذر الناس يوم القيامة.

١٩ ـ أن من واجبات الرسالة: الإنذار.

٢٠ ـ أن من الإنذار: التذكير بأهوال القيامة.

٢١ ـ استحباب أن يجمع الداعية إلى الله بين الإنذار والتبشير.

٢٢ ـ أن من أسماء القيامة: يوم الآزفة.

٢٣ ـ اقتراب يوم القيامة.

٢٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧].

٢٥ ـ شدة هول ذلك اليوم.

٢٦ ـ أن شدة الخوف قد تبلغ بقلب الإنسان حَنْجَرته.

٢٧ ـ أن الكفار يمتلؤون غمًّا في ذلك اليوم، حتى إنهم لا يتكلمون.

٢٨ ـ خيبة الكفار بانقطاع أسباب النجاة؛ فلا حميم ولا شفيع.

٢٩ ـ أن الكفار لا يُطاع فيهم شافع لو وُجد وشَفع لهم.

٣٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣].

٣١ ـ علم الله بما يخفى من أعمال العبد.

٣٢ ـ أن خيانة العين مما يخفَى على عامة الناس، ولكنها لا تخفى على الله، وهي النَّظرة التي يخفيها صاحبها إلى ما حرَّم الله النظر إليه.

٣٣ ـ تحريم النظر إلى ما حرَّم اللهُ من الصُّور المستحسنة، والكتب المتضمِّنة للبدع والعلوم المحرَّمة كالتنجيم والسحر، وكتب الإلحاد والكلام المذموم، وكتب الدعوة إلى الفواحش، المسمَّاة بكتب الجنس.

٣٤ ـ علم الله بما تخفي الصدور.

٣٥ ـ أن قضاء الله في شرعه وقدَره حقٌّ؛ لأنه متضمِّنٌ للحكمة والعدل؛ لأنه تعالى الإله الحق، وهو الذي يقضي بالحق، وآلهة المشركين لا تقضي بشيء؛ لأنها لا تملك شيئًا.

٣٦ ـ إثبات القضاء الشرعيِّ والقدريِّ.

٣٧ ـ ذمُّ كلِّ ما يُعبَد مِن دون الله من الأصنام والأوثان، بما يدل على بطلان إلهيتها.

٣٨ ـ سَفَه المشركين؛ إذْ عبدوا ما لا ينفع ولا يضر، ولا يغني عنهم شيئًا.

٣٩ ـ إثبات الاسمين الكريمين لله تعالى، وهما السميع والبصير، وما دلَّا عليه من إثبات صِفَتي السمع والبصر.

ولما خَوَّفَ اللهُ المشركين بعذاب الآخرة ذكَّرهم بمثُلاته في الدنيا التي جرت على المكذبين من الأمم الغابرة؛ **فقال سبحانه:**

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان التذكيرَ بما حلَّ بالمهلَكين من المكذبين، وقد كانوا أشدَّ قوة من أهل مكة، فأخذهم اللهُ بذنوبهم، بسبب تكذيبهم للرسل وكُفرهم بالله، ولم يمنع عذابَ الله عنهم شيءٌ؛ لأنه تعالى هو القوي الشديد العقاب.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ للمفسرين في هذا الاستفهام وحرف العطف بعده **مذهبان:**

الأول: أنه استفهام تقرير؛ أي: أليسوا قد ساروا في الأرض؟ يعني أنهم قد ساروا وشاهدوا ذلك في أسفارهم كرحلة الشِّتاء والصَّيف، ولكنهم لم ينتفعوا بهذا السير بأخذ العبرة والموعظة؛ فإن العاقل مَن اعتبر بحال غيره، فالسير ـ على هذا المذهب في الاستفهام ـ واقع.

الثاني: أنه استفهام إنكار وتوبيخ لهم على ترك السير، فتكون الواو عاطفة على محذوف؛ أي: أقَعدوا ولم يسيروا؟ فهو حثٌّ لهم على السير في البلاد والاعتبار؛ فالسير ـ على هذا الوجه ـ لم يقع.

ويؤيد المذهبَ الأول وأن السير واقع: قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ الفاء عاطفة للفعل على قوله: ﴿يَسِيرُواْ﴾ فهو مجزوم، ويُحتَمل أن الفاء للسببية؛ أي: فبِسَبب سيرهم ينظرون، ويدل على أنها سببية قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، فقوله: ﴿فَتَكُونَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ (أن) المضمَرة بعد فاء السببية.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾؛ أي: مآل ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: مِن قبل زمانهم مِن الكافرين الذين كذَّبوا رسلهم كعاد وثمود، وما حلَّ بهم من العذاب الهائل، والعقاب العظيم، والاستفهام في ﴿كَيْفَ﴾ للتهويل؛ أي: كانت عاقبتهم هائلة مخزية لا يحيط بها الوصف، وصاروا عبرة لمن بعدهم ﴿كَانُواْ هُمْ﴾؛ أي: تلك الأمم ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: أشدَّ قوة من هؤلاء الكفار من أهل مكة ﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: وأبقَى آثارًا في الأرض من الحصون والقصور والآبار، فآثارهم لم تندرس كلُّها، فقد بقي منه بقايا على وجه الأرض إلى هذا الزمان، مع ما مضى عليها من القرون المتطاولة.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: فكفروا فأهلكهم اللهُ بالعذاب المستأصل بسبب كفرهم وتكذيبهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾؛ أي: لم يكن لهم واقٍ من جهته تعالى؛ أي: حافظ يحفظهم من العذاب، ومَن لم يكن له واق من الله فلا واقي له، وعلى هذا فـ ﴿مِّنَ﴾ الأولى ابتدائية، أو للبدلية؛ أي: لا واقي لهم من الأوثان بدلًا من الله، و﴿مِن﴾ الثانية زائدة للتنصيص على عموم النفي؛ أي: لا واقي لهم ألبتة.

ثم ذكر السبب في إهلاكهم، فقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: العذاب العظيم النازل بهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالآيات الواضحات الدَّالة على صدق الرسل، من الآيات الشرعية، والآيات الكونية ﴿فَكَفَرُواْ﴾؛ أي: كذَّبوا بالآيات وبالرسل ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فأخذهم اللهُ بهلاك الاستئصال أَخْذَ عزيز مقتدر، وأعاد فعل الأخذ بعد تقدُّم نظيره ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ لترتيب المسبَّب وهو الأخذ على السبب وهو الكفر ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ﴾؛ أي: إن الله ﷻ ذو قوة لا يقوم لها شيء من القوى فلا يُغلب ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ أي: شديدٌ عقابُه لأهل الكفر والطغيان، فإضافة ﴿شَدِيدُ﴾ إلى ﴿ٱلْعِقَابِ﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى مرفوعها.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن السير في الأرض، والنظر في آثار المهلَكين، من دواعي الرجوع إلى الله.

٢ ـ سوء عاقبة المكذبين للرسل.

٣ ـ أن الأمم السابقة المكذبة لرسل الله كانوا أشدَّ قوة من كفَّار قريش، وأعظمَ أثرًا في الأرض.

٤ ـ أن قريشًا لديهم قوة.

٥ ـ أن القوة مع الكفر لا تغني من بأس الله شيئًا؛ فلا واقي لهم.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

٧ ـ أن قوَّة الله أشدُّ من كل قوَّة.

٨ ـ التذكير بما صنعه الله بأعداء الرسل من التدمير.

٩ ـ التنبيه على سبب ما حلَّ بهم من عقاب الله.

١٠ ـ إثبات القياس.

١١ ـ إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

١٢ ـ تهديد الكافرين من أهل مكة وغيرهم.

١٣ ـ أن كل أمة أهلكها اللهُ قد جاءها رسول.

١٤ ـ إقامة الحجة على العباد بإرسال الرسل بالبينات.

١٥ ـ تأييد الله الرسل بالآيات.

١٦ ـ أن آيات الرسل بيِّنةُ الدلالة على صدقهم.

١٧ ـ كفر الأمم الهالكة بنعمة الرسالة والهداية.

١٨ ـ أن من أسماء الله: القوي، ومن صفاته: القوة.

١٩ ـ إثبات قوة الله وشدة عقابه.

٢٠ ـ وجوب الحذر من معصية الله والكفر بآياته.

ولما ذكر اللهُ من أخبار المهلَكين المكذبين ما يثبِّت اللهُ به نبيه والمؤمنين، ذكر قصة موسى مع فرعون مثالًا لما أجمل في الآيات السابقة، وتميزت هذه القصة عن غيرها **بأمرين**: **الأول**: عظم كيد المكذبين وعنادهم ثم هلاكهم، **والثاني**: صبر المؤمنين وثباتهم ثم نصرهم؛ **فقال تعالى**:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبرَ من الله عن إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وهامان وقارون، وما وقع منهم من التكذيب، فأخذهم اللهُ بالخسف والغرق، وأخبر تعالى عن طغيان فرعون حتى قال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾، فتعوذ موسى بربه من طغيان فرعون وكل متكبر سواه.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: أرسلنا موسى بالمعجزات الدالة على صدقه وصحة نبوته، وأضاف اللهُ الآيات إلى نفسه المقدسة؛ تشريفًا لها وتعظيمًا ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: وأرسلناه ببرهان واضح بيِّن، وهذا وصف

للآيات نفسها، فنُزِّل تعدُّد الصفات منزلة تعدُّد الذوات فعطف الثاني على الأول، تفخيمًا لشأن الآيات، فهي الآيات وهي السلطان المبين؛ لما تضمنته من الحجة على المكذبين، والرد على المعاندين.

والآيات التي أرسل اللهُ بها موسى إلى فرعون تسع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، والسنين، ونقص الثمرات.

وهذه الآيات التسع هي التي أريها فرعون، وأما الآيات الأخرى التي وقعت بعد هلاك فرعون، فهي آيات ونعم لبني إسرائيل بعدما فارقوا مصر ونجَّاهم اللهُ من فرعون وقومه، مثل فلق البحر، وضرب موسى الحجر بالعصا، وانفجار العيون منه، والتظليل بالغمام، وإنزال المن والسلوى وغيرها.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: أرسلنا موسى إلى فرعون القِبطيِّ الطاغية المتجبر الذي قال: أنا ربكم الأعلى، وهو ملك مصر في عهد موسى ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وهو وزير فرعون ﴿وَقَٰرُونَ﴾ صاحب الكنوز والأموال، وهو متكبر من طغاة بني إسرائيل، وخصَّ اللهُ هؤلاء الثلاثة بالذكر مع أن موسى مرسَل إلى جميع القوم؛ لأن هؤلاء هم الزعماء، ففرعون الملك، وهامان كبير الوزراء، وقارون بمنزلة الملك من حيث كثرة أمواله.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ﴾؛ أي: قالوا عن موسى: إنه ساحر، أي لِما جاء به من البراهين والآيات ﴿كَذَّابٌ﴾؛ أي: مبالِغ في الكذب بادِّعاء النبوة، وهذا شبيه بقول المشركين لنبينا محمد ﷺ، فعادة المشركين مع أنبيائهم مطَّردة بشتمهم وتكذيبهم، وكفرهم وعنادهم.

قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ موسى ﴿بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾؛ أي:

بالآيات البينات التي هي من عندنا، وفي ذلك إشارة إلى أنها خارقة للعادة موجبة للإيمان، ولكنهم لم يؤمنوا، بل أعرضوا وكذَّبوا موسى، ودعوا بقتل أبناء بني إسرائيل ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾؛ أي: آمنوا مع موسى، وهذا القتل غير القتل الأول؛ لأن فرعون أمسك عن القتل بعد ولادة موسى ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾؛ أي: أبقوهن للخدمة، فيكون القتل والاستحياء وقع على بني إسرائيل مرتين ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: وما مكر فرعون وقومه إلا في ضياع وخسار، والمعنى أنه لا يضر رسل الله.

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لملئه ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؛ أي: اتركوني أقتلْ موسى، وهذا أسلوب يراد به التهديد وإبداء الغيظ ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾؛ أي: ولْيناد ربه ليمنعه مني، قال ذلك تعجيزًا لموسى واستهزاءً به؛ لأنه لا يؤمن بالله، وهذا يدل على إفلاسه وعجزه عن مقابلة الحجة بالحجة ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ فتتبعونه تاركين ما أنتم عليه، وكانوا يعبدون فرعون ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أرض مصر ﴿ٱلْفَسَادَ﴾؛ أي: بإظهار الفتن والفرقة وترك الدين والعوائد التي كانوا عليها، و(أو) للتردد؛ أي: إما هذا أو هذا، ويحتمل أن تكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو؛ أي: يجمع بين الأمرين، ويؤيد هذا الوجه قراءة نافع وأبي عمرو وأبي جعفر: ﴿أَوَ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

وحين علم موسى بتهديد فرعون لجأ إلى ربه فقال: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾؛ أي: اعتصمتُ بالله ولجأتُ إليه؛ فهو حسبي ونعم الوكيل، وقوله ﴿بِرَبِّى﴾ لتضمُّن الربوبية معنى الملك والتدبير، وليس الخطاب في قوله ﴿وَرَبِّكُم﴾ لبني إسرائيل؛ لأنه لم يَجْر لهم ذكر هنا، وإنما هو موجَّه إلى فرعون وملئه، وأضاف الربوبية إليهم؛ تأكيدًا لإبطال قول

فرعون: أنا ربكم الأعلى، وتأكيدًا لقوله في أول الإرسال: إني رسول رب العالمين ﴿مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾؛ أي: متكبر على الله وعلى عباد الله، والمقصود به: فرعون وأتباعه، ولم يذكرهم موسى بأسمائهم؛ ليشمل هؤلاء وغيرهم، وللتشنيع عليهم بهذا الوصف، والتكبُّر أصل الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾؛ أي: لا يصدق بيوم القيامة الذي يحاسَب فيه الناس، وتُجزى فيه كلُّ نفس بما كسبت.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أعظم رحمة الله بعباده: إرسال الرسلِ؛ لهداية العباد ووقايتهم.

٢ ـ عظم شأن قصة موسى عليه السلام؛ فقد ثُنيِّت في القرآن وفُصِّلت ما لم يكن لغيرها من قصص الرسل.

٣ ـ عظم شأن الآيات التي أُرسل بها موسى، ولهذا خُصَّ موسى بذكر السلطان المبين في هذه السورة، وفي سورة النساء، وهود، والمؤمنون، والذاريات.

٤ ـ تعظيم الله نفسه بذكره نفسه بصيغة الجمع؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾.

٥ ـ أن موسى مرسَل إلى رؤوس الكفر فرعون وهامان وقارون.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

٧ ـ أن تبليغ الرسالة لرؤوس الأمة تبليغ لعامتهم.

٨ ـ تنوُّع الصوارف عن قبول دعوة الرسل؛ فقد يكون الصارف الملك، أو المال، أو الجاه.

٩ ـ المناسبة بين هامان وفرعون؛ فإنه وزيرُه، ومصيرُه مصيرُه.

١٠ ـ إثبات عندية الابتداء؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾.

١١ ـ أن كلمة الكفر في مواجهة الرسل واحدة، فكلهم يقول: ساحر كذَّاب.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

١٣ ـ أن من عادة المكذبين للرسل: المكابرة في المعارضة.

١٤ ـ تعاون الطواغيت على الكفر والظلم.

١٥ ـ البشارة والتسلية للمؤمنين بحبوط كيد الكافرين.

١٦ ـ لؤم قارون؛ إذْ أيَّد فرعون على ظلم قومه بني إسرائيل.

١٧ ـ أن الذين يخافهم الظلمة هم الرجال.

١٨ ـ أن مآل كيدِ الطاغين إلى ذهاب واضمحلال؛ لقوله: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

١٩ ـ ذكرُ بعضِ ما استخفَّ به فرعونُ قومَه من الإفك؛ لقوله: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

٢٠ ـ تلبيس الطغاة على أتباعهم؛ حيث سمَّوا الظلم والاستعباد دِينًا، والإصلاح وعبادة الله فسادًا.

٢١ ـ انخداع الأتباع بهذا التلبيس.

٢٢ ـ اعتصام موسى عليه السلام بربِّه من كيد فرعون الكافر المتكبِّر.

٢٣ ـ عصمة الله لموسى من كيد فرعون، وما همَّ به من قتله.

٢٤ ـ أن سنَّة الأنبياء: اللجوءُ إلى الله من كيد أقوامهم.

٢٥ ـ أن من أعظم أسباب الوقاية من كيد الكائدين: الالتجاءَ إلى رب العالمين.

٢٦ ـ قُبْح الكِبْر، وأنه سبب لترك الإيمان.

٢٧ ـ إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾.

٢٨ ـ العدول في الاستعاذة بالله من كيد فرعون من الخصوص إلى العموم؛ لقوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾؛ لانطباق الوصف على فرعون وعلى أمثاله.

٢٩ ـ أن من دين موسى عليه السلام: الإيمان بيوم القيامة، وهو يوم الحساب.

٣٠ ـ أن من أسماء القيامة: يوم الحساب.

ولما ذكر اللهُ تهديدَ فرعون لموسى بالقتل أخبر سبحانه أنه قيَّض له رجلًا ينافح عنه من آل فرعون؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن مؤمن آل فرعون، وهو الرجل الذي كان يكتم إيمانه، وقد ناصح فرعون وقومه، وبيَّن لهم أن ما قاله موسى لا يستوجب قتلًا ولا غيره، وذكَّرهم بنعمة الله عليهم بالملك والسلطان، ولكن فرعون أصرَّ على ما رآه من قتل موسى، وعلى أن قوله هو الصواب.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: قبطيٌّ ليس من بني إسرائيل، ويظهر أنه كان وجيهًا ومقرَّبًا من فرعون، ولم يسمَّ؛ لأن المقصود ذكرُ ما قال وما نصح به فرعون، ولايتوقف غرض على تسميته ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾؛ أي: يُخفيه خوفًا على نفسه، وقد آمن سرًّا ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ الاستفهام للإنكار ﴿أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ المصدر المؤول في موضع المفعول لأجله؛ أي: أتقتلون رجلًا من أجل قوله هذا؟! فلا

ذنب له ولا جُرم على الحقيقة ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: والحال أنه قد جاءكم من ربكم بالبراهين الواضحات التي شاهدتموها الدالة على صدقه ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾؛ أي: وإن يكُ موسى كاذبًا في دعوى الرسالة فعليه ـ وحده ـ إثم كذبه، وقدَّم الكذب؛ لأنه هو قولهم فيه ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ في قوله ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾؛ أي: يُصِبْكم بعضُ ما توعَّدكم به من العذاب.

وهذا القول من الرجل المؤمن ليس شكًّا ولا تكذيبًا لموسى، ولكنه استدراج وتلطف وتنزُّل مع فرعون؛ ليقيم الحجة عليه بترك قتل موسى على كلا الوجهين، فلأيِّ شيءٍ يُقتل؟! وفي قوله: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ملاطفة لهم أخرى؛ لأن إصابة الكل ليست ببعيدة بعد تكذيب النبي، وفيه إلزام الحجة بأيسر ما في الأمر.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾؛ أي: لا يوفق للهداية ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾؛ أي: متجاوز الحد في فعله ﴿كَذَّابٌ﴾؛ أي: من عادته الكذب، وهذه الجملة يحتمل أنها من كلام الله معترضة بين كلامي الرجل المؤمن.

ويمكن أن تكون بعضَ كلام الرجل المؤمن، أي أنه يقول: إنَّ موسى لو كان كاذبًا فإن الله لا يهدي المسرف الكذاب، وينطبق هذا الحكم على فرعون؛ ففيها تعريض به؛ لأنه مسرف في فعله كذبح بني إسرائيل، وفي كذبه بادعاء الربوبية، ففي الكلام تعريض بفرعون.

ثم أخذ الرجلُ المؤمنُ يذكِّرهم نِعَم الله عليهم، ويحذرهم زوالها، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه؛ إظهارًا للشفقة عليهم، واستعطافًا بذكر أنه منهم، وهذا دليل آخر على أنه قبطيٌّ ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: غالبين عالين على بني إسرائيل في أرض مصر ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾؛ أي: إن قتلتم موسى فمن ينقذنا من

عذاب الله الشديد إن أصابنا؟ والاستفهام للنفي؛ أي: لا ناصر لنا، وأدرج نفسه فيهم بعد إفرادهم بالملك؛ حثًّا لهم على قبول النصيحة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ﴾؛ أي: ما أشير عليكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ من قتل موسى ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾؛ أي: وما أدلُّكم إلا إلى طريق الحق والصلاح.

الفوائد والأحكام:

١ ـ إجابة الله لعياذ موسى؛ إذ لم يَنَلْه فرعون بسوء.

٢ ـ الإخبار عن مؤمن آل فرعون، وهو رجل يكتم إيمانه.

٣ ـ إنكاره على فرعون تهديد موسى بالقتل.

٤ ـ شجاعة هذا الرجل المؤمن في مواجهة فرعون بما يكره.

٥ ـ حواره مع فرعون في شأن موسى.

٦ ـ مناظرته بالحجج العقلية، وهي **ثلاث حجج**:

الأولى: أن قول موسى (ربي الله) لا يوجب قتله.

الثانية: أن موسى جاء بالبينات.

الثالثة: أنه إن كان كاذبًا فضرر كذبه على نفسه، وإن كان صادقًا أصابكم بعضُ ما وعدكم به.

٧ ـ علم الرجل بالله ﷻ.

٨ ـ الحكمة في إبهام الرجل المؤمن، وهي أن المقصود ذكر ما قام به من الدعوة والنصح لفرعون وقومه، ويترتب على ذلك: أن البحث في اسم هذا الرجل من التكلُّف الذي لا يفيد، وربما كان من القول على الله بغير علم، ومثل ذلك يقال في مبهمات القرآن التي لم يثبت في تعيينها خبر صحيح.

٩ ـ أن الله قد يمن بالهدى والإيمان على فرد من قوم كافرين.

١٠ ـ العذر بالضرورة في كتم الإيمان. وفي شريعة الإسلام مَن لم يقدر على إظهار دينه وجبت عليه الهجرة، إن استطاع إلى ذلك سبيلًا.

١١ ـ إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

١٢ ـ مراغمة الرجل المؤمن لفرعون؛ لقوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.

١٣ ـ مناظرة الخصم بطريق السَّبر والتقسيم؛ لقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

١٤ ـ أن ضرر الكذب على الكاذب نفسه.

١٥ ـ بلادة فرعون؛ إذْ لم يهتد إلى إيمان الرجل، مع ما يدل عليه كلامه.

١٦ ـ أن الإسراف والكذب سببٌ لحرمان الهداية.

١٧ ـ أن أمر الهدى والإضلال إلى الله تعالى، ففيه: الرد على القدرية.

١٨ ـ تذكير الرجل المؤمن فرعونَ وقومَه بما آتاهم اللهُ من الملك والظهور.

١٩ ـ تحذيرُهم بأسَ الله، وأنهم لا يجدون نصيرًا لهم.

٢٠ ـ أن من وسائل الدعوة إلى الله: التذكيرَ بنعم الله.

٢١ ـ فقه الرجل المؤمن وكمال علمه بالله؛ لقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾.

٢٢ ـ إصرار فرعون بعد نصح المؤمن على كفره وعناده وتلبيسه.

٢٣ ـ استبداد فرعون بالرأي.

٢٤ ـ التحذير بما يدَّعيه الطغاة من الإصلاح.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ إخبارَ الله عن الرجل المؤمن وإنذاره لقومه ما جرى على مَن قبلهم من أنواع العذاب، وإنذارهم يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا يعصم الكفارَ عاصمٌ من عذاب الله، وذكَّرهم ما جاء به يوسف أسلافهم من البينات، ولكنهم لم يؤمنوا به.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم﴾؛ أي: بعد تكذيبكم لموسى وإرادة قتله ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾؛ أي: مثل أيام عقوباتهم، والمراد باليوم الجنس؛ لأن العقوبات نزلت في أيام مختلفة، والأحزاب هم الذين تحزبوا على الرسل، وكان لكل حزب منهم يوم أُهلِكوا فيه، والعرب تُطلق اليوم على يوم الحرب، فيقولون: يوم بُعاث، ومثله في الإسلام: يوم بدر، ويوم حنين، ويقولون: أيام العرب للوقائع العظيمة.

قوله تعالى: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾؛ أي: مثلَ جزاء

دأبهم؛ أي: عملهم القبيح الذي دأبوا فيه من تكذيب الرسل وإيذائهم، وقوم نوح هم أول أمة وقع فيهم الشرك، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾؛ أي: والذين جاؤوا من بعدهم من الأمم التي كذبت وأهلكها الله، كقوم لوط وأصحاب مدين ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾؛ أي: وما الله يريد ظلمًا لعباده، فلا يعاقب بدون ذنب، ولا يعاقب أحدًا بذنب غيره، وفي الآية نفي للظلم عن الله من أبلغ وجه؛ لأن مَن كان عن إرادة الظلم بعيدًا كان عن الظلم نفسه أبعد.

ولما خوَّفهم عذاب الدنيا خوَّفهم عذاب الآخرة، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾؛ أي: أخاف عليكم عذاب يوم القيامة، وسمَّاه يوم التناد؛ لأنه يكثر فيه النداء، فينادي اللهُ عباده في المحشر بصوت يسمعه مَن بَعُد كما يسمعه مَن قَرُب: أنا الملك، أنا الديان[1]، وينادي أهلُ الجنة أهلَ النار ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ [الأعراف: ٤٤]، وأهلُ النار أهلَ الجنة ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وينادي أصحابُ الأعراف رجالًا من أهل النار يعرفونهم بسيماهم، وينادي أهلُ النار مالكًا الخازن ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزخرف: ٧٧].

قوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ هذا بدلٌ من ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾؛ أي: يومَ تُولُّون هاربين من النار فزعًا من أهوالها، وليس المعنى أنهم يُولُّون إلى النار مسرعين منصرفين عن الموقف إليها؛ لأنه ورد أنهم يُساقون إليها سوقًا ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۚ﴾، هذا تأكيد للتهديد؛ أي: ليس لكم من جهته تعالى عاصم يعصمكم من العذاب، ومَن لم يكن له عاصم من الله فلا عاصم له، وعلى هذا فـ ﴿مِّنَ﴾ الأولى ابتدائية، و﴿مِنۡ﴾

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٧٢٠) معلَّقًا عن عبد الله بن أنيس، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: ٢٣].

الثانية زائدة للتنصيص على عموم النفي؛ أي: لا عاصم لكم مطلقًا ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ أي: ومن يضلَّه اللهُ فما له من هاد يهديه، فهو مخذول بخِذلان الله له، ولا راد لأمره تعالى ولا معقِّب لحكمه، وقد يكون هذا من الرجل المؤمن تعريضًا بفرعون وقومه، وأنهم في ضلال مُستحكِم.

ثم ذكَّرهم بأن الكفر والشك بالبينات القاطعة عادة قديمة فيهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ النبي الكريم وهو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ﴿مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالآيات الواضحات الدالة على رسالته، والمقصود أنه جاء آباءهم الأولين، فنسب ما للآباء إلى الأبناء؛ لاشتراكهم جميعًا في الضلال والتكذيب، كما جاء في سورة البقرة من خطاب بني إسرائيل في زمن النبي ﷺ بما كان من أسلافهم وما جرى عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩]، ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠]، ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، إلى أمثال ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾؛ أي: بقيتم واستمررتم على الشك فيما أتاكم به كافرين برسالته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾؛ أي: مات يوسف عليه السلام ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾؛ أي: قلتم على سبيل الظَّن والتمني: لن يبعث اللهُ من بعده رسولًا إلينا، وقولهم هذا ليس فيه اعتراف منهم برسالة يوسف، بل هو تهكُّم به واستهزاء، وتكذيب له ولمن يأتي بعده، والله لا يترك عباده سدى، بل لا بد أن يرسل إليهم الرسل، ولكن هؤلاء في ضلال مُستحكِم، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾؛ أي: مثلَ هذا الإضلال الذي ضلَّ به المصريون في زمن يوسف عليه السلام يُضل اللهُ ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾؛ أي:

متجاوز الحد في قوله وفعله ﴿مُرْتَابٌ﴾؛ أي: شاك في دينه، ولا يبعد أن تكون هذه الجملة ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ من كلامه تعالى تعقيبًا على قول الرجل في قوله: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ حُسْن طريقة الرجل المؤمن في الدعوة في تلطُّفه مع قومه، وتذكيرهم عذاب الله في الماضي والمستقبل.

٢ ـ إنذار المؤمن قومه من عذاب الدنيا، كالذي جرى على الأمم من قوم نوح وعاد وثمود.

٣ ـ أن هذا الرجل المؤمن عنده علم من أنباء الأمم الهالكة، إما من خبر موسى، أو من علم التاريخ.

٤ ـ أن من العلوم النافعة: علم التاريخ المأخوذ من المصادر الموثوق بها.

٥ ـ بيان المراد بالأحزاب، وهم قوم نوح ومَن جاء بعدهم.

٦ ـ أن سنة الله في الظالمين الإهلاك.

٧ ـ تنزيه الله عن الظلم، وأنَّ ما فعله بالأحزاب لم يكن ظلمًا لهم.

٨ ـ إثبات كمال العدل لله تعالى.

٩ ـ إثبات الإرادة لله تعالى.

١٠ ـ إنذار الرجل المؤمن قومه يوم القيامة.

١١ ـ أن الرجل المؤمن لديه علم باليوم الآخر.

١٢ ـ أن من أسماء القيامة: يومَ التناد.

١٣ ـ أن الناس يوم القيامة ينادي بعضهم بعضًا استنصارًا واستغاثة، ولكن بلا جدوى.

١٤ ـ أن للناس في يوم القيامة أحوالًا، وفيه أهوال، ففي حال يؤذَن لهم فيتكلمون، وتارة لا يتكلمون.

١٥ ـ أن الكفار يفِرُّون من جهنم إذا جيء بها، طلبًا للنجاة، ولكن لا عاصم لهم من عذاب الله، فلا ينجو منها إلا المتقون.

١٦ ـ أنه لا عاصم من عذاب الله عند حلوله.

١٧ ـ أن من يضله اللهُ فلا يقدر أحد على هدايته.

١٨ ـ تذكير الرجل المؤمن برسالة يوسف عليه السلام.

١٩ ـ أن يوسف عليه السلام رسول.

٢٠ ـ أنه جاء بالبينات.

٢١ ـ أنه مرسل إلى أهل مصر.

٢٢ ـ أنهم لم يزالوا في شك من رسالته.

٢٣ ـ أن كفرهم بيوسف كفر شك.

٢٤ ـ سوء ظنهم بالله أنه لن يرسل بعد يوسف رسولًا، وقد أبطل اللهُ ظنَّهم بإرسال موسى وهارون عليهما السلام.

٢٥ ـ أن (هلَك) بمعنى مات أو توفي ليست خاصة بالمذموم.

٢٦ ـ أن الإسراف والريب في الحق سبب لإضلال العبد.

٢٧ ـ توبيخ الأبناء على قبيح ما كان من الآباء إذا جروا على سنتهم.

٢٨ ـ أن الله يضع الهدى والإضلال في المواضع اللائقة بهما.

٢٩ ـ التأكيد لما سبق من قول المؤمن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

٣٠ ـ أن الإسراف لا يختص بتجاوز الحد في المطعم والمشرب، وأعظم الإسراف الكفر بالله.

﴿ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبرَ عن الذين يجادلون في آيات الله وأنهم ممقوتون من الله تعالى، ومن عباده المؤمنين، وما أمر به فرعونُ هامانَ من إنشاء الصرح وغايته من ذلك، وما انتهى إليه أمرُه من السُّوء والخسار.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ الأظهر أن هذا تابع لكلامه تعالى في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤] جاء في أثناء قصة الرجل المؤمن لبيان عاقبة المجادلين في آيات الله.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ؛ أي: الذين يخاصمون في آيات الله تعنُّتًا ومكابرةً ليبطلوها، وآياته تعالى هي حُجَجُه تعالى الدالة على ربوبيته وإلهيته، وأضافها اللهُ إلى نفسه المقدسة تعظيمًا لها، وتنبيها على قوة دلالتها على الحق والخير ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ يجادلون فيها بلا برهان ولكن باللجاج والباطل ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ خبر

المبتدأ ﴿مَقْتًا﴾ تمييز محول عن الفاعل، وفاعل ﴿كَبُرَ﴾ ضمير يعود على الجدال المفهوم من ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾؛ أي: كبُر جدالهم ﴿مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه وقضائه ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ أي: عظُم بُغْضًا عند الله وعند المؤمنين؛ أي: اشتد بُغض الله وبُغض المؤمنين لجدالهم، والمقصود التعجب والاستعظام لهذا الجدال، وبلوغه الغاية في القبح والشناعة، وفي قوله: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دلالة على موافقة المؤمنين لربهم في حبِّه وبغضِه، وفيه تنويه من الله بحكمهم، وأنه عند الله بمكان، حتى قرنه إلى حكمه وقضائه تعالى.

قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: مثلَ هذا الختم على قلوب المجادلين في آيات الله يختم الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾؛ أي: متعالٍ عن الحق ﴿جَبَّارٍ﴾؛ أي: متسلطٍ على الناس بظلمه وعدوانه، والآية وإن كانت في سياق الحديث عن فرعون وأنه موصوف بالتكبر والجبروت، فإن فيها تعريضًا بمشركي مكة فلهم نصيب من هذا الوصف، وهم المشار إليهم في أول السورة بقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤].

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لوزيره ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾؛ أي: بناءً عاليًا ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: طرقها الموصلة إليها؛ أي: لعلي أدركها وأصل إليها ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالنصب على قراءة حفص؛ لأن الترجي هنا بمعنى التمني، ففيه الإشارة إلى بُعْد ما ترجَّاه، وأنه مُحال غير ممكن في العادة، وعند البصريين أن سبب النصب وقوع (لعل) جوابًا للأمر في قوله: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾، والترجِّي عندهم على بابه.

وقرأ جمهور القراء ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالرفع عطفًا على ﴿أَبْلُغُ﴾، ﴿إِلَٰٓهِ

﴿مُوسَىٰ﴾؛ أي: أنظر إليه، وما هذا من فرعون إلا سخرية وتهكم، وتكذيب لرسالة موسى، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَٰذِبًا﴾؛ أي: وإني لأعتقد أنه كاذب في دعوى الرسالة وفي إثبات إله غيري، والظنُّ هنا بمعنى اليقين؛ لأنه قال كما أخبر الله عنه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ أي: مِثلَ هذا التزيين البالغ زُيِّن لفرعون عملُه السيِّئ فحسِبه حسَنًا ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: صُرف عن سبيل الهدى والرشاد بسبب طغيانه وتكبره ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: وما مكره وتدبيره في بناء الصَّرح والقضاء على موسى ودعوته ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾؛ أي: في خسار عظيم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أنه لا حجة للمجادلين في آيات الله لا من شرع ولا من عقل.

٢ ـ أن الجدال في آيات الله سببٌ لمقت الله ومقت المؤمنين.

٣ ـ أن مَقت الله ومَقت المؤمنين مقت عظيم.

٤ ـ إثبات صفة المقت لله تعالى.

٥ ـ أن مقت الله يتفاوت؛ لقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ إثبات عندية الحكم لله تعالى.

٧ ـ أنَّ من علامة الإيمان: حبَّ ما يحبه الله، وبغضَ ما يبغضه الله.

٨ ـ أن سبب جدال المجادلين في آيات الله هو: الطبع على قلوبهم.

٩ ـ أن سبب الطبع على قلوبهم: التكبُّر والجبروت.

١٠ ـ أن الله طبع على قلب فرعون فرأى كفره صلاحًا ورشادًا، فصُدَّ عن سبيل الرشاد، فآثر سبيل الغيِّ.

١١ ـ التحذير من الكبر والجبروت.

١٢ ـ الردُّ على القدريَّة في نفي تعلُّق قدرة الله بالهدى والإضلال؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

١٣ ـ أن من آثار مقت الله للعبد: الطبعَ على قلبه.

١٤ ـ أن القلب عليه مدار الصلاح والفساد.

١٥ ـ أن مِن جهْل فرعون وغروره: طمعَه في بلوغ السماء.

١٦ ـ أن موسى أخبر فرعون بأن إلهه في السماء.

١٧ ـ أن فرعون كذَّبه في ذلك.

١٨ ـ إثبات العلو لله تعالى، وأن ذلك من شريعة موسى عليه السلام.

١٩ ـ أن المثبتين للعلو موسويَّة، والجاحدين للعلو فرعونيَّة.

٢٠ ـ أن هامان أخصُّ وزراء فرعون به أو كبيرهم.

٢١ ـ جواز إسناد الفعل إلى من أَمر به؛ لقول فرعون لهامان: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾، وهامان لا يبني، بل يأمر بالبناء، وهذا من المجاز العقلي.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

٢٣ ـ استخفاف فرعون بقومه بأنواع الخداع؛ فبناؤه للصرح مكايدة لا حقيقة.

٢٤ ـ خيبة فرعون في كيده؛ إذْ صار كيده في تباب.

٢٥ ـ أن الملك والسلطان سبب للكفر والطغيان.

٢٦ ـ أن تمادي فرعون في الكفر والطغيان سببُه أن زيِّن له سوء عمله.

٢٧ ـ الرد على القدَرية في زعمهم أنه لا أثر لمشيئة الله وفعله في ضلال العبد وهداه؛ لقوله: ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

٢٨ ـ أن كيد الكافرين مآله إلى خسار.

٢٩ ـ أن السماوات عدَدٌ، وهي سبع، كما بُيِّن في آيات.

ولما رأى الرجلُ المؤمنُ تمادي فرعون وقومه في الكفر والضلال دعاهم إلى اتباعه، وأعاد عليهم النُّصح ترغيبًا وترهيبًا؛ **قال سبحانه:**

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ تلطُّفَ المؤمن لقومه، وطلبَه منهم أن يتبعوه، وأنه بيَّن لهم حَقارة الدنيا، وعِظَم شأن الآخرة، وذكَّرهم رحمة الله وعدله، ودعاهم إلى العمل الصالح مع الإيمان، وأنَّ ذلك سبب الفوز بالجنات.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾؛ أي: أطيعوني فيما نصحتكم به ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾؛ أي: أدلُّكم طريق الخير والفلاح، وفي قوله هذا إشارة إلى أن ما يدعوهم فرعون إليه هو طريق الغيِّ والهلاك.

قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ كرر هذا النداء ملاطفة لهم، واستجلابًا لقلوبهم، وإظهارًا لصدقه، وأنه فردٌ منهم يناله من ينالهم ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾؛ أي: متاع قليلٌ زائل تتمتعون به زمانًا، ويشغلكم عمَّا خلقتم له، ثم يزول وينتهي بانتهاء حياة الإنسان ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾؛ أي: هي دار الإقامة والخلود التي لا زوال لها، ولا

تحوُّل عنها، ومراده بالآخرة الجنة والنار، فإما خلود في النعيم، أو خلود في الجحيم.

ثم بيَّن لهم كيف تكون المجازاة في الآخرة، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾؛ أي: معصية في الدنيا ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ﴾ عليها في الآخرة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾؛ أي: فالعقوبة بقدر العمل، والسيئة بواحدة، فلا يزاد في عقاب أحد ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ أي: مَن آمن وعمل عملًا صالحًا، وهو الذي يرضاه الله ﷻ ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾؛ أي: سواء أكان ذكرًا أم أنثى، و﴿مِّن﴾ بيانية ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فلا بد من الإيمان، فهو شرط لقبول العمل والثواب عليه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الذين عملوا ذلك ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: يُرزقون رزقًا غيرَ مقدَّر بحساب؛ لكثرته ودوامه وأنه لا نهاية له، قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ فضل الرجل المؤمن؛ لإيمانه ودعوته، ونصحه لقومه وإنذارهم.

٢ ـ حُسْن طريقته في الدَّعوة بتنويع الأساليب ترغيبًا وترهيبًا.

٣ ـ أن هداية الدلالة تكون من العبد من نبيٍّ أو من أتباعه.

٤ ـ علمه بأنه على الحق؛ لقوله: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

٥ ـ أن الرُّشد مطلبٌ لعقلاء الناس، ولهذا فإن كلَّ داعٍ يدَّعيه، محقًّا كان أم مبطلًا.

٦ ـ مراغمة المؤمن لفرعون بمعارضته بنظير قول فرعون: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

٧ ـ أن السُّبُل التي يسير عليها الناس في هذه الحياة نوعان: سبيلُ غيٍّ، وسبيلُ رشادٍ.

٨ ـ تعطُّف الرجل المؤمن وتلطُّفه لقومه حتى قال لهم: (يا قوم) ست مرات.

٩ ـ الموازنة بين الدنيا والآخرة.

١٠ ـ أن الدنيا متاعٌ قليل زائل.

١١ ـ أن الآخرة دارُ القرار، والحياةُ الدائمة؛ نعيمُها وعذابُها.

١٢ ـ أن من أسماء الآخرة: دارَ القرار.

١٣ ـ التزهيد في متاع الدنيا، والترغيب في ثواب الآخرة.

١٤ ـ ترغيب الدَّاعي فيما يدعو إليه بذكر محاسنه.

١٥ ـ أن جزاء السيئات قائمٌ على العدل، وجزاء الحسنات قائم على الفضل.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

١٧ ـ أن الأنثى كالذكر كلاهما مَجزيٌّ بعمله.

١٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

١٩ ـ أنه لا بد من العمل في دخول الجنة، ففيه: الرد على المرجئة.

٢٠ ـ أن العمل المقتضي للثواب هو ما كان صالحًا، وهو ما تحقق فيه الإخلاص والمتابعة.

٢١ ـ أن الإيمان شرط للعمل الصالح؛ لقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

٢٢ ـ إثبات الجنة، وأنه يدخلها الرجال والنساء.

٢٣ ـ أن رزق أهل الجنة كثير، ولا ينقطع.

٢٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤].

قال تعالى:

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمنَّت الآياتُ الإخبارَ عن المؤمن في دعوته لقومه، وقصده النصح لهم بدعوته إلى نجاتهم، وذكر التباين بين دعوته لهم ودعوتهم له، فهو يدعوهم إلى النجاة، وهم يدعونه إلى النار، وأن قومه كانوا يدعونه إلى الرجوع إلى دينهم من الكفر والشرك، وهو يدعوهم إلى التوحيد إلى عبادة العزيز الغفار، وبيَّن لهم أن ما يدعون إليه باطل في الدنيا والآخرة، وذكَّرهم أنهم جميعًا راجعون إلى الله، وأنَّ المسرفين هم أصحاب النار، وأنهم سيندمون يوم القيامة، ويذكُرون ما قال لهم، وأخبرهم أنه متوكلٌ على الله، ومفوِّضٌ أمره إليه؛ لأنه تعالى بصير بالعباد، يعلم المحقُّ من المبطل، وما يصير إليه كلٌّ منهما.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾؛ أي: النجاة من النار بتوحيد الله، وإفراده بالعبادة ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: وتدعونني إلى العمل الذي يُدخلني النار بالكفر بالله والشرك به، كما بيَّنه بقوله: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ﴾، وكل من دعا إلى

الكفر فهو يدعو إلى النار، كما قال تعالى في المشركين: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٢١].

والاستفهام في قول المؤمن ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ﴾ للتعجُّب منهم والإنكار عليهم؛ لأنه لم يُجيبوا إلى الإيمان ولم يصمتوا، بل جعلوا يدعونه إلى الكفر والشرك، ولهذا قال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: وأجعل له شريكًا ليس لي علم بربوبيته، والمراد بنفي العلم نفي المعلوم؛ أي: نفي وجودِ ما يزعمونه شريكًا لله ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: القويِّ الذي لا يغلب ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ أي: الكثير المغفرة لعباده، ووجه تخصيص ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ و﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ بالمقام: أنه تعالى غالبٌ لمن أشرك به، غفَّار لمن تاب من كفره.

قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: حقًّا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ من الأصنام وغيرها ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: لا تقدر في الدنيا أن تدعو الناس إلى نفسها لعجزها فهي جمادات، ولا تستجيب لو دُعيت ﴿وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: لا تجيب الداعي في الآخرة، كما أنها لا تجيبه في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ [الكهف: ٥٢]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦].

قوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: وأنَّ مرجعنا إلى الله يوم البعث ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: المسرفين على أنفسهم بالشرك ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: الملازمون لها، كما يقتضيه معنى الصحبة، فلا يخرجون منها أبد الآباد، ولا يُطلَق أصحابُ النار إلا على من يُخلَّد فيها، فلا يُقال لعصاة المؤمنين: أصحابُ النار، ولو دخلوها وعُذِّبوا ما عُذِّبوا.

ثم أنهى الرجلُ المؤمنُ نصيحتَه بخاتمة حسنة، وهي التحذير البالغ من سوء العاقبة؛ لِما رأى من إعراضهم؛ فقال: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾؛ أي: فستعلمون صدق ما أقول لكم، وستندمون إذا نزل بكم عذابُ الله في الدنيا أو في الآخرة.

ولما خوَّفهم بذلك وقصدوه بأنواع السوء لجأ إلى الله في رد كيدهم، فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: أكِل جميعَ أموري إلى الله؛ أي: أتوكل عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: عليم بأحوالهم، ومطَّلع على جميع أعمالهم، فلا يخفى عليه من ذلك شيء، وسيجازي كلًّا بعمله، وفيه تهديد لهم، وقول الرجل المؤمن هذا شبيه بقول موسى حين هدده فرعون بالقتل قال موسى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ التباين العظيم بين الدعوتين: دعوة المؤمن، ودعوة الكافر والمشرك.

٢ ـ رُجْحان دعوة المؤمن على دعوة قومه بموجَب العقل الصريح.

٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٢١].

٤ ـ أن دعوة المشرك هي دعوة الشيطان للإنسان، ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

٥ ـ أن الدعوة إلى الشِّرك هي الدعوة إلى النار.

٦ ـ دعوة الكفار إلى دينهم.

٧ ـ أن المشرك لا علم له ببطلان آلهته، ولا حجة له في عبادتها.

٨ ـ أن الأصنام لا خير فيها لعابديها، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

٩ ـ أن الدعوة إلى الحق هي الدعوة إلى الله.

١٠ ـ إثبات اسمين من أسمائه تعالى، هما: العزيز والغفَّار، وإثبات ما دلَّا عليه من العزة والمغفرة.

١١ ـ أن الشرك بالله باطلٌ في الدنيا والآخرة.

١٢ ـ أن الناس كلَّهم ـ مؤمنهم وكافرهم ـ راجعون إلى الله، فيجزِي كلًّا بعمله.

١٣ ـ أن من طرق الدعوة: التذكير برجوع الخلق إلى الله.

١٤ ـ أن المشركين هم المسرفون، وهم أصحاب النار.

١٥ ـ تعريض الرجل المؤمن بقومه أنهم مسرفون.

١٦ ـ أن الكفار سيندمون في الآخرة، ويذكرون دعوة الرسل، ويودُّون لو استجابوا لدعوتهم.

١٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

١٨ ـ أن من أسباب حسن العاقبة: التوكل على الله وتفويض الأمر إليه.

١٩ ـ كمال علم الله بحقائق العباد وعواقبهم.

٢٠ ـ إثبات العبودية العامة.

ولما لجأ الرجلُ المؤمنُ إلى ربه لرد كيد فرعون وقومه، ذكر سبحانه أنه صرف عنه السوء؛ **فقال تعالى:**

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

▨ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان الخبرَ بأن الله عَصم المؤمن من كيد فرعون وقومه، وأنه تعالى أحَلَّ بآل فرعون سوء العذاب بأن أغرقهم، ثم صاروا إلى النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا، هذا قبل يوم القيامة، وفي يوم القيامة يقول الله لخزنة النار: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب في النار.

▨ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فحفظه اللهُ ودفع عنه ﴿سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ هذا من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: فوقاه اللهُ مكرهم السَّيِّئ، وجُمعت السيئات؛ لتعدُّد أنواع مكرهم، فاللهُ نجَّى الرجلُ المؤمنَ كما نجَّى موسى عليه السلام من مكر فرعون وقومه ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: وأحاط بفرعون وقومه ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: العذابُ السَّيِّئ، وهو الغرق في البحر، ثم المصير إلى النار، ولهذا قال تعالى:

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ هذا مبتدأ وخبر، والمراد: تُعرض أرواحهم على النار، وليس المراد إحراقهم؛ لأنه لو كان كذلك لقال: النار يصلونها، ولكن المراد عرضهم على النار، فيصيبهم من سمومها ولظاها شيء عظيم، كما قال ﷺ: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة**

والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[1].

قوله سبحانه: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾؛ أي: يعرضون على النار صباحًا ومساءً، والمراد دائمًا في كل وقت إلى يوم القيامة، وهو عذاب البرزخ؛ أي: عذاب القبر بدليل قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: تجيء في وقتها وعلى صفتها ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: يقول الله تعالى للخزنة: ادخِلوا آل فرعون ﴿فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: أعظمَه وأفظعَه جزاء تكذيبهم وكفرهم وعتوِّهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن فرعون وقومه عرفوا أن الرجل مؤمن بما سمعوه من كلامه.

٢ ـ أنهم كادُوه ومكروا به، ولعلهم أرادوا به ما أرادوا بموسى من القتل، ولا سيما أنه عارضهم فيما أرادوا من قتل موسى.

٣ ـ أن الله وقاه سوء كيدهم ومكرهم، وعاد سوءُ مكرهم عليهم بسوء العذاب.

٤ ـ حفظ الله لأنبيائه وأوليائه من كيد أعدائه.

٥ ـ أنه تعالى يكفي من توكَّل عليه.

٦ ـ أن فرعون وقومه بعد الغرق صاروا يعرضون على النار غُدوًّا وعَشيًّا.

٧ ـ إثبات النار، وأنَّها موجودة الآن.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

٨ ـ الرد على المعتزلة في إنكارهم وجود النار الآن.

٩ ـ إثبات عذاب البرزخ.

١٠ ـ الرد على مَن أنكر عذاب البرزخ من المعتزلة وغيرهم.

١١ ـ بقاء النفس بعد الموت؛ أي: الروح.

١٢ ـ الرد على من قال: إن الروح عَرَضٌ لا بقاء له.

١٣ ـ إثبات القيامة، وهي الساعة.

١٤ ـ أن من أسماء القيامة: الساعة.

١٥ ـ إثبات أن للنار خَزَنة من الملائكة.

١٦ ـ أن خَزَنة النار موكَّلون بتعذيب أهلها، وإنزالهم منازلَهم من النار.

١٧ ـ أن الخَزَنة يفعلون ما أمرهم الله به، ولا يعصونه.

١٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

١٩ ـ أن آل فرعون يعذَّبون أشدَّ العذاب.

٢٠ ـ أن عذاب أهل النار يتفاوت.

٢١ ـ أن الله يجمع للكافرين بين عذاب الروح والجسد.

٢٢ ـ تهديد كفار قريش وتحذيرهم من سوء مكرهم بالنبي ﷺ.

ولما جرى ذِكرُ النار ودخول آل فرعون فيها ـ أعاذنا الله منها ـ أخبر تعالى عمَّا يكون فيها من الحوار والخصام بين الرؤساء والأتباع؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبرَ عن تخاصُم أهل النار من الضعفاء والمستكبرين، واحتجاج بعضهم على بعض، والإخبارَ عن أهل النار أنهم يطلبون من خَزَنة النار أن يدعوا الله بتخفيف العذاب عنهم ولو يومًا، ثم الرد عليهم بالتوبيخ، وأَمْرهم بالدعاء لأنفسهم وإن كان دعاؤهم لا يُجدي شيئًا عليهم، ثم أخبر تعالى بسنته في نصره لرسله وأتباعهم في هذه الدنيا وفي الآخرة في ذلك اليوم الذي لا ينفع الظالمين فيه اعتذارهم، وقد حقَّت عليهم اللعنة، واستحقوا سوء الدار.

▩ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ أي: واذكر ـ أيها

الرسول ـ لقومك المشركين؛ ليعتبروا ويتعظوا حين يتخاصم أهل النار فيها، وفيهم فرعون وقومه ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا﴾ منهم وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾؛ أي: الذين تكبَّروا عن الإيمان بالله ورسله، وهم الزعماء والرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تَبَع جمع تابع، كخَدَم جمع خادم؛ أي: كنَّا أتباعًا لكم في الدنيا كالخدَم منقادين لما تأمروننا به من الشرك والضلال ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: دافعون عنَّا جزءًا من النار، وأبرزوا طلبهم بصيغة الاستفهام؛ لشدة حرصهم، ورغبتهم في المطلوب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾؛ أي: قال المستكبرون للضعفاء مجيبين لهم ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾؛ أي: إننا كلنا فيها نحن وأنتم، ولا نستطيع أن نفعل لكم شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: حكم بينهم بحكمه الجزائي؛ أي: قضى بجزاء أعمالهم، ولا رادَّ لقضائه تعالى، ولا مُعقِّب لحكمه، فحكم للمؤمنين بالجنة، وحكم للكافرين بالنار، ومعنى كلامهم: أنَّ كلًّا من التابعين والمتبوعين قد لقي الجزاءَ الذي يستحقه.

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: وقال الكفار المعذَّبون في النار حين اشتد عليهم العذاب ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وهم الملائكة الموكَّلون بالنار القائمون عليها، واحدهم خازن، ومقتضى الظاهر أن يُقال: وقال الذين في النار لخزنتها، فعُدل عن ذلك لإبراز اسم جهنم؛ لأن في هذا الاسم تهويلًا ليس في الضمير ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: سلوه تعالى شافعين لنا، وإضافة الربوبية إلى ضمير الملائكة؛ لأنهم أقرب من أهل النار أن يستجيب اللهُ دعاءهم ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: يخفف عنا يومًا واحدًا من هذا العذاب المقيم، وسؤالهم التخفيف بهذا المقدار دليل على يأسهم المستحكم، وأنهم لن يخرجوا.

قوله سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال الملائكةُ الخَزَنةُ مجيبين لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: ألم تك تأتيكم رسلكم بالحجج الواضحة الدالة على وحدانية الله وعلى البعث والجزاء؟ والاستفهام للتقرير والتوبيخ، والإلزام بالحجة، ولهذا قال الكفار: ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: بلى قد أتونا بكل ذلك ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾؛ أي: قالت الملائكة: إذا كان الأمر كما قلتم فادعوا ربكم أنتم، وهذا تهكُّم بهم، وتيئيس لهم من رحمة الله ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وما دعاؤهم لربهم ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: ضياع وخسار؛ لأن الله لا يستجيب لأهل النار في طلبهم الخروج منها، ولهذا لما قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] أجابهم الله بقوله: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لم يقولوا: وما دعاؤكم؛ لِما في الاسم الظاهر ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من التسجيل عليهم بوصف الكفر، وتعليل عدم استجابة دعائهم، ولتعميم الحكم بضلال دعاء كلِّ كافر.

ولما تضمَّنت الآياتُ السابقة الخبرَ بنصر الله لموسى والرجل المؤمن، أخبر تعالى أن هذه سنتُه مع رسله والمؤمنين؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: والذين آمنوا بهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ننصرهم في الدنيا بتأييدهم بالحجة وظهورهم على أعدائهم، كما وقع في غزوة بدر، ولا يُورَد على هذا ظهور الكفار على المؤمنين في بعض الأحيان؛ لأن ذلك يقع لحكمة يعلمها الله ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾؛ أي: ننصرهم في الآخرة يوم يحضر الشهود من الملائكة والأنبياء والمؤمنين، فيشهدون للأنبياء بأنهم بلَّغوا رسالات ربهم، ويشهدون على الكفار بالكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ أي: يوم لا ينفع الكافرين اعتذارهم عن كفرهم وتكذيبهم؛ لأنه اعتذار بعد فوات الأوان، ولأنهم كاذبون في معاذيرهم ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾؛ أي: ولهم الطرد والإبعاد من رحمة الله، واللام في (لهم) بمعنى (على)، كما يشهد له الآيات الأخرى، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦١]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٨٧]، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ أي: النار، من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: دار السُّوء، واللام في (لهم) للاختصاص والاستحقاق؛ أي: أن سوء الدار مختصة بهم، ومستحقَّة لهم.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الكفار مصيرهم إلى النار؛ رؤساؤهم وضعفاؤهم.

٢ ـ أن الضُّعفاء يلومون المستكبرين أنهم أضلُّوهم.

٣ ـ أن المستكبرين يتبرؤون من الضعفاء، ويعتذرون إليهم بأنه قد نفذ فيهم جميعًا حكم الله.

٤ ـ أن الضعفاء يكونون في الغالب أتباعًا في الخير والشر.

٥ ـ أن للرؤساء والكبراء أثرًا على الأتباع في الشر والخير.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

٧ ـ أن الكبر من أعظم أسباب الكفر، وردِّ دعوة الرسل.

٨ ـ ذهاب كبرياء المستكبرين واعترافهم بمساواة المستضعفين في العذاب.

٩ ـ اعتراف المستكبرين بأن حكم الله نافذ في الجميع، فلا يتبدل.

١٠ ـ إثبات حكم الله الجزائي يوم القيامة.

١١ ـ إقرار المستكبرين بالعبودية لله.

١٢ ـ إثبات العبودية العامة.

١٣ ـ شدة عذاب النار.

١٤ ـ شدة حسرة أهلها.

١٥ ـ أن أهل النار يستشفعون بخزنة النار.

١٦ ـ أن الخَزَنة لا يجيبونهم إلى طلبهم، بل يوبخونهم، ويذكرون أن حجة الله قامت عليهم بإرسال الرسل.

١٧ ـ أن الخَزَنة يأمرونهم أن يدعوا لأنفسهم.

١٨ ـ أن دعاءهم بطلب تخفيف العذاب لا يجدي عليهم شيئًا.

١٩ ـ أن دعاء الكفار لا يستجاب، إلا المضطر والمظلوم منهم للأدلة الخاصة بذلك.

٢٠ ـ أن أهل النار يتكلمون ويتخاصمون، وشواهد هذا في القرآن كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وقوله: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧].

٢١ ـ أن نار الآخرة تخالف نار الدنيا، فنار الدنيا من دخلها تعطَّل إدراكُه، وفقد إحساسَه، أما نار الآخرة فيتكلم أهلُها ـ في بعض أحوالهم ـ ويسمعون ويدركون؛ ليحصل منهم التلاوم والندم، والاعتراف بالكفر وتمني الرجعة، وليسمعوا التقريع والتوبيخ.

٢٢ ـ قيام الحجة على الكفار بإرسال الرسل.

٢٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ

مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الزمر: ٧١].

٢٤ ـ ذِكر الله نفسه بضمير الجمع الدال على العظمة.

٢٥ ـ أن النصر سنَّة الله في الرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

٢٦ ـ بشارة النبي ﷺ والمؤمنين بنصرهم على أعدائهم.

٢٧ ـ إظهار الله نصره لرسله وأوليائه يوم القيامة في مشهد من أهل الموقف، وفي ذلك إظهار شرفهم ومنزلتهم عندهم.

٢٨ ـ قيام الشهود على العباد بأعمالهم.

٢٩ ـ أن اعتذار الظالمين يوم القيامة لا ينفعهم، وأنَّ لهم اللعنة من الله وملائكته والناس أجمعين، ولهم سوء الدار.

٣٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

ثم ذكر اللهُ ما آتاه موسى عليه السلام وقومَه بعد هلاك فرعون؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبرَ من الله بأنه آتى عبدَه ورسولَه موسى الهدى، وأنه أورث بني إسرائيل الكتاب؛ ليهتدي به أولو الألباب ويتذكروا، وتضمَّنت أَمْرَ الله نبيه ﷺ بالصبر على ما يقوله أعداؤه، وأن يسبح بحمده بالعشي والإبكار، وذمَّ المجادلين في آيات الله بغير حجة، وأنَّ الذي حملهم على ذلك الكبر الذي لن يبلغوه، وأَمْرَ الله نبيه ﷺ بالاستعاذة بالله من الكبر والمتكبرين؛ لأنه تعالى هو السميع البصير.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: أعطيناه ما يهتدي به إلى الحق وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩]، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: أعطيناهم التوراة يتوارثونها جيلًا بعد جيل، بعد أن كانوا مُستعبَدين بطغيان فرعون وقومه، يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم.

وهذه الآية تُشير إلى أن إنزال التوراة على موسى كان بعد إهلاك

فرعون، فالتوراة خاصة ببني إسرائيل وليست لفرعون وقومه، وجاءت الإشارةُ إلى هذا المعنى في مواضع من القرآن، أعني: ذِكرَ إنزال التوراة بعد إهلاك فرعون، كما في سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩]، وفي سورة القصص في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿هُدًى﴾؛ أي: ذلك الكتاب ـ وهو التوراة ـ هدايةً لهم، فلا يضلون ما تمسكوا به ﴿وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: موعظةً ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: لأصحاب العقول السليمة، وخصَّهم بالذكر؛ لأنهم هم المنتفعون بالهدايات، والمعتبرون بالعِظات دون غيرهم.

ولما أخبر تعالى أنه ينصر رسله والمؤمنين، وضَرَب المثل بانتصار موسى وظهوره على فرعون، خاطب اللهُ نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾؛ أي: إذا عرفت ما قصصنا عليك فاصبر على أذى المشركين ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: إن وعده تعالى ثابت لا يتخلف بنصر أوليائه ودحر أعدائه، كما قال تعالى قبل ذلك: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، فكما نصر اللهُ موسى على فرعون فالله ناصرك ـ أيها الرسول ـ على أعدائك.

قوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾؛ أي: اطلب المغفرة لذنبك، وقد امتثل النبيُّ ﷺ أمر ربه، فكان يقول في دعائه: «**رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي خطاياي، وعمدي، وجهلي، وهزلي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر**

لي ما قدمتُ وما أخرت، وما أسررتُ وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»[(١)]، ويقول: **«والله إني لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»**[(٢)].

وقد غفر اللهُ ذنب نبيه ﷺ ما تقدم منه وما تأخر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١ ـ ٢]، وقال سبحانه: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ٢]، ومذهب جمهور العلماء أن الأنبياء تجوز عليهم الصغائر، فيقع منهم ما سبق به قضاء الله عليهم[(٣)]، ولكنهم يتوبون منها ولا يُقَرُّون عليها، ويغفرها اللهُ لهم، وتكون حالُهم بعد الذنب خيرًا منها قبله، ومع ذلك فلا يجوز لأحد أن يقع فيهم بالطعن والذم، ولْيُعلم أنه ليس كلُّ ذنب يجوز على الأنبياء؛ فإن من الذنوب أشياء لا تقع منهم أبدًا، لا قبل النبوة ولا بعدها؛ كالكذب، والخيانة، وما يُزري بهم، ويُنفِّر عنهم، وإذا كان هذا حال الأنبياء وهم الكُمَّل من البشر، فغيرهم من باب أولى أن يقع منه الذنب، فليكن العبد على خوف دائم من ربه، وأن يراقب الله في جميع أحواله وأفعاله.

وذهب طائفة من المفسرين في تفسير الآية إلى أن المراد بالذنب في حق النبي ﷺ ما لا يُعَد ذنبًا في حق سائر الناس، كترك الأَولى،

---

(١) البخاري (٦٠٣٥) ومسلم (٢٧١٩) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٥٩٤٨) عن أبي هريرة، ومسلم (٢٧٠٢) عن الأغر المزني رضي الله عنه.

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام...، وهو أيضًا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء يقولون: إن الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول». «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣١٩).

كإذنه ﷺ لمن لم يعلم صِدقه، فقال اللهُ لنبيه فيه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وكإعراضه عن الأعمى تألُّفًا لرؤساء المشركين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ١٠]، وهذا يجري على حد قول بعض أهل العلم: حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ أي: ما يُعد من حسنات الصالحين الأبرار قد يُعد في حق المقربين سيِّئًا؛ لنقصانه عن مرتبتهم وما يليق بهم.

قوله سبحانه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الباء في ﴿بِحَمْدِ﴾ للمصاحبة؛ أي: نزِّه ربَّك ـ أيها الرسول ـ عن كلِّ ما لا يليق به تنزيها مقرونًا بالحمد؛ أي: بالثناء عليه تعالى، المعنى: دُم على التسبيح والحمد لربك ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾؛ أي: في آخر النهار وأوله وفي كل وقت، وجاء عن غير واحد من السلف أن المراد بالتسبيح: الصلاة؛ ويدل لذلك: أن التسبيح من أسمائها؛ أي: صلِّ لله الصلوات الخمس؛ فإن العشيَّ يمتد إلى العتمة، فيكون فيه صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، والإبكار من طلوع الفجر الثاني فيكون فيه صلاة الفجر، ومما يدل على أن المراد بالتسبيح الصلاة: أن الصلاة يُثنَّى فيها قول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بتكرار الفاتحة فيها.

والأمر بالصبر والاستغفار والتسبيح وإن كان خطابًا للنبي ﷺ، فإنه يعم جميع أمته.

ولما تقدم ذِكرُ المجادلين في آيات الله ومقت الله لهم، ذكَر السبب الحامل لهم على المجادلة؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يخاصِمون في آيات الله ليُبطلوها، وآياته تعالى حجَجُه تعالى الدالة على ربوبيته وإلهيته ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾؛ أي:

بغير برهان عندهم ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾؛ أي: ليس في صدورهم مِن سببٍ لهذا الجدال إلا تكبُّرٌ واستعلاءٌ عن قبول الحق ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾؛ أي: ما هم ببالغي غايته ومقتضاه من الزعامة والاستعلاء عليك ـ أيها الرسول ـ فإنَّ الله أذلهم وقهرهم ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فاعتصم بالله من كيدهم وشرِّهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؛ أي: السميع لأقوالك وأقوالهم، البصير بجميع أعمالكم؛ فلا يخفى عليه شيء منها، ومن استعاذ بالله أعاذه الله وحفظه ووقاه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ فضل موسى عليه السلام بما آتاه اللهُ من الهدى والكتاب.

٢ ـ إرسال الله موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، وإعطاؤه التوراة عند ذلك؛ لقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٣ ـ أن من أسماء التوراة: الكتاب؛ لأنها مكتوبة.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩].

٥ ـ أن النبوة والكتاب صارت إلى بني إسرائيل بعد الأمم السالفة قبلهم.

٦ ـ أن ميراث الأنبياء هو العلم.

٧ ـ أن الحكمة من إنزال الكتب الهدى والتذكُّر.

٨ ـ فضل بني إسرائيل على غيرهم من أهل زمانهم بأن جعل الله النبوة والكتاب فيهم.

٩ ـ أن المنتفعين بكتب الله هم أولو الألباب؛ أي: أصحاب العقول الزكيَّة.

١٠ ـ أن من لم يتذكر بكتب الله فليس ذا عقل رشيد.

١١ ـ إرشاد الله نبيَّه ﷺ إلى الصبر على ما يقوله الكافرون.

١٢ ـ وجوب الصبر على الأذى في الدعوة.

١٣ ـ أن الصبر من أعظم ما يُستعان به من فعل العبد على المصائب.

١٤ ـ إرشاد الله نبيه ﷺ إلى الاستغفار.

١٥ ـ وجوب الاستغفار.

١٦ ـ أن الاستغفار مما يعين على الصبر.

١٧ ـ جواز الذنوب على الرسل والأنبياء عليهم السلام، ولكنها الصغائر، ومع ذلك فلا يجوز الطعن فيهم.

١٨ ـ أنه لا يستغني عن الاستغفار أحد.

١٩ ـ إرشاد الله نبيَّه ﷺ إلى التسبيح في أول النهار وآخره.

٢٠ ـ مشروعية التسبيح في أول النهار وآخره.

٢١ ـ أن التسبيح من أعظم ما يعين على الصبر.

٢٢ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

٢٣ ـ وجوب الصلوات الخمس.

٢٤ ـ أن ممَّا يعين على الصبر: اليقين بالتصديق بوعد الله.

٢٥ ـ أن وعد الله حقٌّ، فهو آتٍ لا محالة.

٢٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

٢٧ ـ أن للعبد فعلًا من الصبر والاستغفار والتسبيح، ففيه: الرد على الجبريَّة في نفيهم خَلْقَ أفعال العباد.

٢٨ ـ ذمُّ الذين يجادلون في آيات الله.

٢٩ ـ أن الذين يجادلون في آيات الله لا حجة لهم على جدالهم.

٣٠ ـ أن الحامل لهم على ذلك الكبر.

٣١ ـ أن الكبر قد ملأ صدورهم.

٣٢ ـ أنهم لن يبلغوا ما يطمعون فيه من الكبرياء.

٣٣ ـ أن الكبر من موانع قبول الحق.

٣٤ ـ أن الكبر من أعمال القلوب.

٣٥ ـ علم الله بما في الصدور.

٣٦ ـ مشروعية التعوُّذ بالله من الكبر والمتكبرين.

٣٧ ـ تيئيس المجادلين في آيات الله من بلوغ ما كانوا يطمعون فيه من الكبرياء.

٣٨ ـ إثبات عَلَم من أعلام النبوة؛ فإن الكفار لم يدركوا ما كانوا يطمعون فيه من العلو.

٣٩ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما السميع والبصير، وما دلَّا عليه من صِفَتي السمع والبصر.

٤٠ ـ تسلية النبي ﷺ بأنه تعالى يسمع أقواله وأقوالهم، ويرى أفعاله وأفعالهم.

٤١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

ولما كان أكثر جدال المشركين في البعث؛ لأنهم يكفرون به، احتج الله عليهم **بقوله سبحانه:**

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ بأن خَلْقَ السماوات والأرض أعظمُ من خلق الناس؛ أي: بعثهم من قبورهم، وأن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، ثم الإخبار بأن الأعمى والبصير لا يستويان، كذلك المسيء والذي يعمل الصالحات لا يستويان، ثم أخبر تعالى بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن أكثر الناس لا يؤمنون بها.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اللام في ﴿لَخَلْقُ﴾ للابتداء، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله؛ أي: لخلقُ الله السماوات والأرض وإنشاؤهما ابتداءً ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أعظم من خَلْقِ الله الناس بعد موتهم وإعادتهم إلى الحياة؛ لأن الناس ليسوا بشيء نسبة إلى تلك الأجرام العظيمة، ويدخل في خلق السماوات استقرارُها من غير عمد، وجريانُ الأفلاك بالكواكب في جو السماء، ويدخل في خلق الأرض: الجبال وما ضمَّت الأرضُ من المعادن الجامدة وغيرها.

ومن البدَهي أن من قَدِر على خلق الأعظم والأكبر فهو على خلق

الأيسر أقدر، وهذا في نظر العقل، وأما بالنسبة لقدرة الله فليس في قدرته تعالى تفاوُت، فالكلُّ هيِّنٌ عليه؛ لأنه يقول للشيء كن فيكون.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك؛ لأنهم لا يتفكرون في صُنع الله، ولغَلَبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم، والمراد بالناس هنا: المشركون؛ لأنهم المجادلون في آيات الله، والجاحدون للبعث، والمشركون أكثر الناس.

وبهذا يتبيَّن أنه ليس المقصود بقوله: ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: ابتداءَ خلقهم، لأن هذا ممَّا يقرُّ به المشركون ولا ينكرونه.

ولما كان المشركون لا يعلمون الحق صاروا كالعُمي، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ أي: وما يستوي الأعمى عن الحق وهو الكافر، والبصير العارف به وهو المؤمن، لا يستويان بوجه من الوجوه؛ فالمؤمن يتدبر آيات الله فيعرف الحق بها فكان كالبصير، والكافر معرض ببصره وقلبه فكان كالأعمى، فلا خير فيه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ﴾؛ أي: وكذلك لا يستوي المحسنون الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات والمسيؤون في أعمالهم، وزيادة ﴿لَا﴾ لتأكيد النفي السابق بـ ﴿مَا﴾.

وكلتا الجملتين في المؤمن والكافر ونفيِ استوائهما، لكن الأولى تُفيد نفيَ استوائهما في العلم والمعرفة، والثانية تُفيد نفيَ استوائهما في العمل.

وإنما قدِّم المؤمن ـ والله أعلم ـ لمجاورته للبصير، وظاهر النظم أن يقدَّم المسيء على المؤمن، كما قدم الأعمى على البصير.

قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: تتذكَّرون تذكرًا قليلًا، و﴿مَّا﴾ مزيدة لتأكيد قلة التذكُّر والمتذكرين، فلو تذكروا لعلموا أنه لا يستوي الفريقان، والقصد أنهم لا يتذكرون

أصلًا؛ لأنهم كفار، والسورة مكية، بل لم يجيء هذا الأسلوب إلا في السور المكية[١]، ومثله ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٢]، والعرب تطلق القِلَّة في لغتها، وتريد بها العدم، ومن ذلك قول ذي الرُّمَّة:

أُنِيخَتْ فَأَلْقَتْ بَلْدَةً فَوْقَ بَلْدَةٍ قَلِيلٌ بِهَا الْأَصْوَاتُ إِلَّا بُغَامُهَا[٣]

يريد: أن تلك الفلاة لا صوتَ فيها إلا بُغامُ ناقته.

ثم أخبر تعالى عن مجيء القيامة بعد أن أقام الدليل على إمكانها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ أي: لا شك في إتيانها لوضوح أدلتها، وسيُجازَى هناك المحسن والمسيء، ويحتمل أن هذا خبر بمعنى النهي؛ أي: لا ترتابوا فيها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يصدقون بذلك ولكن يكذبون، وهم الكفار الذي لا يُقِرُّون بالبعث، وقيَّد بالأكثر لكثرة الكافرين، وهذا الأسلوب مطَّرد في السور المكية، كهذه السورة[٤].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن السماوات والأرض أكبرُ مخلوقات الله المشاهدة.

٢ ـ كمال قدرة الله.

٣ ـ الردُّ على الفلاسفة في قولهم بقِدم السماوات.

٤ ـ أن خَلْقَ السماوات والأرض أدلُّ على قُدرته تعالى من قُدرته على بعث الناس من قبورهم.

---

(١) جاء في سورة الأعراف الآية (٣)، والنمل الآية (٦٢)، والحاقة الآية (٤٢).

(٢) في سورة الأعراف الآية (١٠)، والمؤمنون الآية (٧٨)، والسجدة الآية (٩)، والملك الآية (٢٣).

(٣) «ديوان ذي الرمة» (٢/ ١٠٠٤).

(٤) وفي سورة هود الآية (١٧)، وسورة الرعد (١).

٥ ـ أن من أدلَّة إمكان البعث: خلق الله السماوات والأرض.

٦ ـ إثبات البعث.

٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

٨ ـ أن الغالب على الناس الجهل بدلائل قدرة الله.

٩ ـ ذمُّ الجهل ومدح العلم.

١٠ ـ أن من بدهيات العقول: ألَّا يستوي الضِّدَّان.

١١ ـ إثبات قياس العكس، وهو إعطاء الشيء ضدَّ حكم نظيره؛ فإنه إذا كان البصر محمودًا كان العمَى مذمومًا، والعكس صحيح.

١٢ ـ اشتمال القرآن على أدلة عقلية، وبذلك تكون شرعية.

١٣ ـ تشبيه المؤمن والكافر بالأعمى والبصير.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤].

١٥ ـ أن الإيمان بصر وبصيرة، والكفر عمًى.

١٦ ـ أن الذي يعمل الصالحات محسنٌ إلى نفسه وإلى غيره، والذي يعمل السيئات مسيء إلى نفسه وغيره.

١٧ ـ فضل الإيمان والعمل الصالح، وقبح الكفر والعمل السَّيِّئ.

١٨ ـ اعتبار العمل الصالح مع الإيمان، وهو من الإيمان.

١٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

٢٠ ـ أن من طرق البيان: تشبيه المعقول بالمحسوس.

٢١ ـ أن من طرق التعليم: ربط المعقول بالمحسوس؛ ليحصل الفهم.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

٢٣ ـ الندب إلى التذكُّر، وذمُّ من لا يتذكر.

٢٤ ـ أن تذكُّر الناس بالآيات والعظات قليل.

٢٥ ـ أن من أسماء القيامة: الساعة.

٢٦ ـ ثبوت القيامة، وأنها آتية لامحالة.

٢٧ ـ وجوب الإيمان بالقيامة، وذمُّ من لا يؤمن بها، أو يشك فيها.

٢٨ ـ أن أكثر الناس لا يؤمن بيوم القيامة.

٢٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

ولما ذكر تعالى الساعة أخبر بما ينجي من أهوالها، وهو دعاؤه تعالى وعبادته؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ أَمْرَ الله العباد بدعائه ووعدَه بالإجابة، وتهديدَه للمستكبرين عن ذلك، وامتنانَه عليهم بجعل الليل والنهار نعمتين لسُكناهم وانتشارهم، وذلك من فضله تعالى على الناس، وأن أكثر الناس لا يشكرون، وأخبر تعالى أن ذلك من آثار ربوبيته؛ لأنه خالق كل شيء، ولا إله غيره، ثم وبَّخ المشركين على انصرافهم عن الإقرار بإلهيته، وأن ذلك كان بتدبير الله عقوبة على جحدهم بآياته.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾؛ أي: خالقكم ورازقكم ومالك أمركم ﴿ادْعُونِي﴾؛ أي: اعبدوني واسألوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ أي: أُثبْكم على عبادتكم، وأعطكم ما سألتم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾؛ أي: يتكبرون عن عبادتي ومسألتي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؛ أي: صاغرين أذلَّاء.

ثم ذكر تعالى بعضَ دلائل ربوبيته وكمالَ قدرته المقتضية لإفراده

بالعبادة، فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾؛ أي: خلق لكم تفضلًا منه وإنعامًا ﴿ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: جعله مظلمًا لتستريحوا فيه من الحركة ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؛ أي: مُضيئًا للعمل فيه وطلب المعاش، وأسند الإبصار إلى النهار؛ لأنه وقت إبصار الناس أو سبب إبصارهم، وهذا من المجاز العقلي، وفائدته: الدلالة على كمال إبصار الناس في النهار، ولهذا لم يقل: والنهار لتبصروا فيه، على وفق ما قيل في الليل، ومثل هذا قولهم: فلان نهاره صائم؛ أي: لكثرة صومه في النهار وملازمته للصوم؛ فإنه لما كثُر صومه صح إسناد الصوم إلى النهار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أكَّد الخبر بـ ﴿إِنَّ﴾ واللام؛ لأهمية مضمونه؛ أي: إن الله لذو فضل عظيم على الناس بخلق الليل والنهار وبسائر نعمه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لا يشكرون ربهم فضله وإنعامه فلا يعبدونه ولا يطيعونه؛ لأن أكثر الناس كفار فهم لا يشكرون، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ويدل لهذا من السنة: قوله ﷺ: «**يقول اللهُ ﷻ يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار، قال: يا رب وما بَعْثُ النار؟ قال: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعين**»[1].

ثم بيَّن تعالى كمالَ قدرته المقتضية لوجوب توحيده؛ فقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ، وما بعده أخبار أربعة ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر أول ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبر ثان ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ خبر ثالث؛ أي: ذلكم الموصوف بالصفات العظيمة من إجابة الدعاء، وخلق الليل والنهار، والتفضل بالنعم هو الله ربكم؛ أي:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦٤)

خالقكم وخالق كلِّ شيء، فلا خالقَ غيرُه ولا شريكَ معه في الخلق ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر رابع؛ أي: لا معبود بحق سواه، وقدِّم هنا صفة الخلق على كلمة التوحيد خلاف آية الأنعام[1]؛ لتقدُّم ذكر المخلوقات هنا.

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الفاء هي الفصيحة التي تفصح عن شرط مقدر، والاستفهام للتعجب والإنكار؛ أي: إذا قامت لديكم البراهين المقتضية لربوبيته تعالى وإلهيته، فكيف تُصرَفون عن عبادته إلى عبادة غيره من الأصنام والأوثان التي لا تملك لأنفسها نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟!

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: مثلَ هذا الصرف عن الحق والهدى يُصرف كلُّ من كفر بآيات الله، جزاءً وفاقًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، والفعل (جحد) يتعدَّى بنفسه، لكنه ضمِّن معنى كفر، كما أن كفَر يتعدَّى بالباء، لكن قد يُضمَّن معنى (جحد) فيتعدى بنفسه، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٠].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات كلام الله تعالى، وأنه يخبَر عنه بالماضي والمستقبل: قال ويقول، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾.

٢ ـ إثبات الربوبية العامة.

٣ ـ وجوب الدعاء مع حسن الظن بالله.

٤ ـ أنه تعالى يجيب الداعين.

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

٥ ـ أن الدعاء عبادة، بل من أجلِّ العبادات.

٦ ـ كرم الرب وإحسانه إلى عباده.

٧ ـ تهديد المستكبرين عن عبادة الله بدخول جهنم مع الصَّغار.

٨ ـ عقوبة المستكبر بضد حاله، وهو الصَّغار.

٩ ـ إثبات النار.

١٠ ـ كمال قدرة الله بإيجاد الليل والنهار.

١١ ـ أن نِعمتَي الليل والنهار وما فيهما من السكن والانتشار من فضل الله على عباده.

١٢ ـ كفر أكثر الناس بنعم الله.

١٣ ـ إثبات الجَعْل الكوني لله تعالى.

١٤ ـ الحكمة من خلق الليل والنهار.

١٥ ـ تعليل أفعال الله؛ لقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾.

١٦ ـ أن نِعمه تعالى من آثار ربوبيته.

١٧ ـ إثبات الربوبية العامة.

١٨ ـ إثبات تفرده تعالى بالإلهية.

١٩ ـ أن مَرَدَّ جميع النعم إلى فضل الله.

٢٠ ـ عظم فضل الله.

٢١ ـ وجوب شكر الله.

٢٢ ـ أن أكثر الناس لا يشكرون.

٢٣ ـ عدم اعتبار الكثرة في معرفة الحق والباطل، والخطأ والصواب.

٢٤ ـ توبيخ المشركين على إعراضهم عن توحيد الله مع وضوح أدلته.

٢٥ ـ أن ضلالهم عن التوحيد عقوبة على جحدهم بآيات الله.

٢٦ ـ أن ضلالهم عن التوحيد كان بإضلال الله، عقوبةً على جحدهم بآيات الله.

٢٧ ـ إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، وإثبات الإلهية؛ لأن الرب هو المستحق للعبادة.

٢٨ ـ الرد على القدرية في إخراجهم أفعال العباد عن خلقه تعالى؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٢٩ ـ أن كلَّ ما سِوى الله مخلوق.

٣٠ ـ الفرق بين الخالق والمخلوق؛ ففيه: الرد على أصحاب وحدة الوجود القائلين بأن الخالق عين المخلوق.

٣١ ـ أن الله هو الإله الحق وحده.

٣٢ ـ ترتيب توحيد الإلهية على توحيد الربوبية؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بعد قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٣٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

٣٤ ـ أن أشهرَ الأسماء الحسنى وأجمعَها (الله) الدال على الإلهية؛ لأنه جاء مخبَرًا عنه في هذه الآيات في ثلاث منها.

٣٥ ـ الرد على القدرية في نفيهم أن يكون ضلال الناس بإضلال الله.

٣٦ ـ ظهور أدلة التوحيد.

٣٧ ـ التعجُّب من إعراض المشركين عنها.

٣٨ ـ أن المعاصي سبب للخِذلان، وهو عدم التوفيق لقبول الحق.

٣٩ ـ أن من إضلال الله ما هو عقوبة على فعل من العبد.

ثم ذكر تعالى من دلائل ربوبيته ما يتعلق بالمكان بعد ذكر ما يتعلق بالزمان؛ زيادة في دعوتهم إلى الإيمان وترك الشرك؛ **فقال سبحانه:**

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان الامتنان من الله على العباد بأن جعل لهم الأرضَ قرارًا، وجعل السماء فوقهم بناءً، وصوَّرهم وأحسن صورهم، ورزقهم من الطيبات، وأخبر تعالى أن ذلك من مقتضى ربوبيته، ثم أخبر سبحانه بأنه الحيُّ لا إله إلا هو، وأمر بعبادته وإخلاص الدين له، ثم حمِد نفسه؛ لأنه أهل الحمد كلِّه.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾؛ أي: مستقرة صالحة لحياتكم، تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتتنقلون عليها بسهولة، وفي جوفها وسطحها ما لا يحصى من النعم والآيات، كما قال سبحانه ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ أي: وجعل السماء بناءً مُحكَم الترابط؛ أي: سقفًا للأرض، فالسماء فوق الأرض كالقبة المضروبة عليها، وهي على عُلُوها وسعتها قائمة بلا عمد، لم تتغير على مر الدهور وتقلُّب الأحوال، فهي من أعظم الآيات المذكرة بخالقها، ولهذا أمر الله

بالنظر إليها في آيات كثيرة من كتابه، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

ولمَّا ذكر تعالى دلائلَ ربوبيته في الأكوان والآفاق ذكر دلائلَ ذلك في الأنفس، فقال سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ الفاء في ﴿فَأَحْسَنَ﴾ تفسيرية؛ أي: جعلكم في أحسن صورة، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، فالله خلق الإنسان في أجمل الأشكال؛ متناسب الأعضاء، معتدل القامة، مهيَّئًا لطلب المعاش واكتساب الكمالات الإنسانية، غير مُنكَبٍّ على وجهه كالبهيمة، وخصَّه بالعقل، وأنطقه بالكلام، وعلمه البيان، وأودع فيه القوى الظاهرة والباطنة، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، ومن آيات الله الباهرة في الإنسان: التفاوت بين أفراده في الصورة، فلا تجد اثنين يشتبهان من كل وجه، فتبارك الله أحسن الخالقين.

قوله سبحانه: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾؛ أي: أعطاكم من طيبات المطاعم والمشارب ومن كل رزق حلال، فكل ذلك داع إلى شكره تعالى وإفراده بالعبادة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ﴾؛ أي: ذلكم المنعم بهذه النعم هو الله ربكم لا غيره؛ أي: خالقكم ومدبر أموركم ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: تعالى اللهُ وتعاظم وتقدَّس، وعظمت بركاته، وكثرت خيراته وإحسانه، وهذا الفعل (تبارك) لا يتصرف؛ فلا يأتي منه مضارع ولا مصدر ولا اسم فاعل ولا غير ذلك، ولا يُسنَد إلا إلى الله أو إلى اسمه تعالى، كما قال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]؛ لأنه يدل على البركة الذاتية، فالله تعالى ذو البركة العظيمة الثابتة ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: رب العوالم كلها، ولا تكون الربوبية الحقَّة إلا له ﷻ.

ثم نبَّه على استحقاقه للعبادة، فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾؛ أي:

هو ـ وحده ـ المتفرد بالحياة الدائمة الذاتية، وكل مَن عداه يموت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق سواه ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ الفاء هي الفصيحة المؤذنة بشرط مقدَّر؛ أي: إذا تبين أنه تعالى هو المستحق للعبادة وحده ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: اعبدوه، وسلُوه حاجاتكم، مخلصين له العبادة من شوائب الشرك خفيِّه وجليِّه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: الثناءُ الكامل لله تعالى على كمال أوصافه، وكمال إنعامه، و(أل) في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ للاستغراق؛ أي: جميع أنواع الحمد لله تعالى.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات الجَعْل الكوني.

٢ ـ أن الله خالق الأرض.

٣ ـ أن من نعم الله: أن جعل الأرض مستقرة صالحة للسُّكنى، والعيش فوقها.

٤ ـ أن من نعم الله: أن جعل السماء فوق العباد كالسقف للبيت، ولم يجعل الفضاء مفتوحًا لا ينتهي إلى شيء، ولهذا سمَّى اللهُ السماءَ سقفًا في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

٥ ـ أن السماء مبنية، وجاء ذلك في آيات.

٦ ـ أن السماء والأرض مجعولتان؛ أي: مخلوقتان، ففيه: الرد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم.

٧ ـ أن من نعم الله: أن صوَّر الإنسان وأحسن صورته، فميَّزه عن الحيوان.

٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣].

١٠ ـ أن من نعم الله على العباد: أن رزقهم من أنواع الطيبات من أنواع الثمار، قوتًا وفاكهة.

١١ ـ أن ذلك من آثار ربوبيته تعالى.

١٢ ـ إثبات الربوبية العامة.

١٣ ـ أن الربوبية مقتضية للرحمة.

١٤ ـ وصفه تعالى بالبركة الذاتية، وهي كثرة الخير والبر.

١٥ ـ أن كلَّ المخلوقات آياتٌ دالةٌ على وجود الله وصفات كماله؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٦ ـ تنزيهه تعالى عن النقائص والعيوب.

١٧ ـ إثبات اسمه (الحيِّ)، وما دل عليه من صفة الحياة.

١٨ ـ أنه تعالى المستحق للإلهية وحده.

١٩ ـ أن مقتضى إلهيته: دعاؤه وإخلاص الدين له تعالى.

٢٠ ـ الاستقامة على الدين.

٢١ ـ أنه تعالى المستحق للحمد كله.

٢٢ ـ إثبات جميع المحامد لله تعالى، وهي صفات الكمال.

ولما بيَّن تعالى ما له من صفات الجلال ونعوت الكمال الدالة على أنه الإله الحق؛ أمر نبيَّه ﷺ أن يقطع أطماع المشركين في ترك دينه ببيان أن الأمر ليس إليه، وأنه مأمور منهيٌّ من ربه؛ **فقال سبحانه:**

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ أَمْرَ الله نبيَّه ﷺ أن يُخبر قومَه بأن الله نهى عن الشرك، وأمر بالتوحيد، وأن يخبرهم بدليل من أدلة التوحيد والبعث الذي ينكرونه، وهو ابتداء خلق الإنسان من تراب، ثم من الماء المهين الذي جعله أطوارًا في أرحام الأمهات، وأطوارًا بعد خروج الإنسان إلى هذه الدنيا، وأن منتهى الإنسان في هذه الدنيا إلى الشيخوخة أو الوفاة، والإخبارَ بأنه تعالى هو الذي يحيي ويميت، وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: قل ـ أيها الرسول ـ للمشركين: إن ربي نهاني أن أعبد آلهتكم التي تعبدونها من دون الله؛ أي: غيره تعالى ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾؛ أي: حين جاءني الآياتُ الواضحاتُ من ربي، وهي آيات القرآن

المشتملة على دلائل التوحيد، وأحكام الشريعة، وقصص الأنبياء والمرسلين، وأخبار البعث والجزاء ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾؛ أي: وأُمرت بالتوحيد، وذلك بالاستسلام لله وحده بعبادته، والانقياد له بالطاعة ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: لربِّ الخلائق كلها.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ هذا رجوع إلى ذكر أدلة الربوبية، وهي آية أخرى في النفوس، وهي الأطوار التي مر بها خَلْقُ الإنسان؛ أي: هو ـ أي: الله ﷻ ـ الذي خلقكم من تراب؛ أي: خلق أصلكم وهو أبوكم آدم من تراب، ثم انتقل إلى ذريته، فقال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ أي: خلقكم من منيٍّ، وأصل النطفة الماء القليل ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾؛ أي: قطعة جامدة من الدم تَعْلق في الرحم، وهذا هو الطور الثاني من أطوار خلق الإنسان، والطور الثالث كونه لحمًا، وهو المضغة ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾؛ أي: ثم ييسر خروجكم من بطون أمهاتكم حال كونكم أطفالًا، والطفل اسم جنس يصدق على المفرد والجمع، وفي الكلام إيجاز بحذف جملتين؛ إذ لم يذكر طَورَي المضغة والعظام، كما ذكرا في سورة المؤمنون.

واقتصر هنا على أول الأطوار، فالنطفة أول الأطوار مطلقًا، والعَلَقة هي أول الأطوار الكائنة بالاستحالة والانتقال، ولهذا ـ والله أعلم ـ اقتصر على العلقة في أول سورة نزلت من القرآن، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: ثم يُبقيكم لتبلغوا أشدَّكم؛ أي: قوتَكم، وذلك باشتداد العظام واكتمال النمو، ويكون ذلك ببلوغ الحُلم وهو سن التكليف، فإذا بلغ الإنسانُ الحُلمَ اكتمل نموُّه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ

ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓا إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦]، مع قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، قال ابن كثير: «قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال الشعبي ومالك وغير واحد من السلف: يعني: حتى يحتلم»[(١)].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾؛ أي: ثم يُبقيكم إلى أن تصيروا شيوخًا، والشيخ من بلغ الخمسين ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: يموت قبل بلوغ الأشد وقبل الشيخوخة، ويشمل السِّقط وما بعده ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ متعلق بمحذوف؛ أي: فعل ذلك لتبلغوا وقتًا معيَّنًا، وهو وقت الموت ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ معطوف على ﴿لِتَبْلُغُوٓا۟﴾؛ أي: ولكي تتفكروا بعقولكم ما في هذا التنقُّل في الأطوار من أدلة قدرة الله وحكمته وعلمه.

ولما ذكر تعالى الأجلَ المسمَّى أخبر أنه المتفرد بالإحياء والإماتة؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: يُحيي من يشاء، ويُميت من يشاء ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾؛ أي: إذا أراد إحداث أمر من الأمور ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ أي: فيوجد في الحال، ودون تأخر، كما تدل عليه الفاء في ﴿فَيَكُونُ﴾ التي للعطف والتعقيب، وهذا أمر كونيٌّ يستتبع حصول المراد كونُه، والتعبير بالمضارع ﴿فَيَكُونُ﴾ مكان الماضي؛ لاستحضار الحال المستقبلة.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الرسول ﷺ عبدٌ لله، يأمره الله وينهاه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ﴾ ففيه: الرد على من يقول: إن الرسول أو غيره من الأولياء له التصرف في الكون.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٦٤).

٢ ـ بُطلان إلهية ما سوى الله.

٣ ـ النهي عن الشرك، وهو أعظم الذنوب.

٤ ـ الأمر بالتوحيد، وهو أصل دين الإسلام.

٥ ـ أن أدلة التوحيد والبعث ظاهرة الدلالة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٦ ـ أن النبي ﷺ لم يكن متعبَّدًا بشرع من قبله؛ لقوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾.

٧ ـ أن ما جاء به الرسول هي آيات بيِّنات في نفسها واضحات، ومبيِّنات للهدى من الضلال، والحق من الباطل.

٨ ـ وجوب الحذر من عدم معرفة أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق؛ لعدم فهم الآيات البينات.

٩ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾.

١٠ ـ إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١١ ـ أن الله ـ وحده ـ هو الخالق للإنسان.

١٢ ـ خَلْق الإنسان من تراب، وهو آدم.

١٣ ـ خَلْق نسله من نطفة، وهو الماء الدافق.

١٤ ـ أن خَلْق الإنسان في بطن أمه أطوار: نطفة فعَلقة فمضغة، إلى أن يصير طفلا.

١٥ ـ الإخبار عن أحوال بطون الأمهات، وفي ذلك: إثبات إعجاز القرآن؛ لِما اشتمل عليه من أنباء الغيب.

١٦ ـ أن الإنسان بعد الولادة يكون أطوارًا ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾.

١٧ ـ كمال قدرة الله وعلمه وحكمته.

١٨ ـ أن لكل إنسان أجلًا مسمًّى.

١٩ ـ أن المقتول ميِّت بأجله، ففيه: الرد على المعتزلة القائلين بأن المقتول مقطوع عليه أجلُه.

٢٠ ـ أن في خَلْق الإنسان دليلًا على التوحيد وعلى البعث.

٢١ ـ أن من أسباب الاهتداء: العقل في الإنسان.

٢٢ ـ الندب إلى التفكُّر؛ لِما في خَلْق الإنسان من دلائل التوحيد والبعث.

٢٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥].

٢٤ ـ تعليل أفعال الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٢٥ ـ أن الله هو الذي يُحيي ويُميت، وهذا من معاني ربوبيته.

٢٦ ـ أن الله إذا أراد وجود شيء قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

٢٧ ـ أن ما قضاه الله كان ولا بد، من غير افتقار إلى شيء.

٢٨ ـ إثبات القضاء الكوني.

٢٩ ـ إثبات الكلام لله تعالى.

ثم عاد السياق إلى ذكر المجادلين في آيات الله وما أُعد لهم من عذاب الآخرة؛ **فقال سبحانه:**

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ التذكيرَ بحال المجادلين في آيات الله، والتعجيبَ من حالهم، وسوء عملهم، وتهديدَهم بسوء العاقبة، وتفصيل عذابهم البدنيِّ الروحيِّ، وذِكْرَ اعتذارهم الذي لا يغني عنهم شيئًا، ومنتهى أمرهم، وهذا هو الموضع الرابع الذي ذكر فيه المجادلون في آيات الله في هذه السورة، فهو متضمِّن جزاءهم ونهايتهم، وفي الموضع الأول ذكر حكمهم وهو الكفر، قال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]، وفي الثاني ذكر استحقاقهم للمقت، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٣٥]، وفي الثالث ذكر سبب مجادلتهم وهو الكبر، قال تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [غافر: ٥٦]، وفي الرابع ذكر جزاءهم وسوء عاقبتهم في الآخرة، وما يلقون فيها من العذاب والنكال، ففي أولها حكمهم، وفي آخرها نهايتهم، وهذا من

حُسْن التناسب بمكان، فسبحان الله، ما أعظم شانه، وما أتم بيانه، وأوضح برهانه!

التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: ألم يَنْته علمك إلى ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ والخطاب للنبي ﷺ ولكل مَن يصلح للخطاب، فهو عام لكل مَن له عقل وإدراك يفهم به الخطاب، والرؤية علمية؛ والاستفهام للتقرير والتعجيب؛ أي: انظر وتعجب من هؤلاء المجادلين في آيات الله؛ تعنتًا ومكابرةً لتكذيبها ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ استفهام إنكار وتعجيب؛ أي: كيف يُصرَفون عن الإيمان بها مع وضوحها وظهور دلالتها على ربوبيته تعالى وإلهيته؟!

قوله سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ عطف بيان أو بدل من ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾؛ أي: هم المشركون الذين كذبوا بالقرآن ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾؛ أي: وكذَّبوا بجميع ما أرسلنا به رُسُلَنا من الأحكام والشرائع ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد لهم شديد؛ أي: سوف يعلمون صدق الرسل حين يباشرون العذاب الذي أخبرتهم به الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾، ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ مبتدأ، و﴿السلاسل﴾ معطوف عليه، والخبر ﴿فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾، و﴿يُسْحَبُونَ﴾ حال من ضمير ﴿أَعْنَاقِهِمْ﴾.

المعنى: سيعلمون حين توضع الأغلال في أعناقهم، جمع غُلٍّ، وهو حلقة من حديد توضع في العنق ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ متصلة بالأغلال ﴿يُسْحَبُونَ﴾؛ أي: حال كونهم مسحوبين تسحبهم الملائكةُ على وجوههم بعنف ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾؛ أي: في الماء الحار زيادة في عذابهم ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ

﴿يُسْجَرُونَ﴾؛ أي: توقَد بهم النار كما توقَد بالحطب والحجارة، و(إذْ) ظرف للماضي استعملت في الزمان المستقبل؛ أي: في موضع (إذَا) للدلالة على تحقق الأمر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾؛ أي: ثم يُسألون توبيخًا وتبكيتًا: أين شركاؤكم الذين كنتم تشركونهم في العبادة والتأليه من الأصنام والأوثان؟ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: سِوى الله ﷻ، تشركونهم مع الله وتسوُّونهم به تعالى، هل يدفعون عنكم العذاب؟! ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾؛ أي: غابوا عن أعيننا فلا نراهم، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ لأنهم إما أن يكونوا في مكان آخر بحيث لا يرونهم، أو كأنهم غائبون عنهم لعجزهم عن نصرتهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ لجؤوا إلى الكذب؛ لظنهم أنه ينفعهم، وهذا من اختلاطهم واضطرابهم وحيرتهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾؛ أي: حجتهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وقيل: معنى ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لم نكن نعبد في الدنيا شيئًا يعتد به، وهذا منهم إقرار ببطلان آلهتهم.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مثلَ إضلال هؤلاء في الآخرة حين يحارون ويفزعون إلى الكذب يضلُ اللهُ كلَّ كافر في الدنيا.

ثم يُقال لهم وهم في النار: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾؛ أي: العذاب العظيم الذي أنتم فيه الآن ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بسبب فرحكم بالشرك والمعاصي ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾؛ أي: وبسبب اختيالكم وتكبُّركم على الناس.

ثم تقول لهم خَزَنةُ النار على سبيل الإهانة: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾؛ أي: ادخلوا النار مقدَّرًا لكم الخلود الأبدي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ [النساء: ١٦٨ ـ ١٦٩]، ﴿فَبِئۡسَ﴾ فعل ماض لإنشاء الذم، فهو ذمٌّ للنار؛ أي: قبُح ﴿مَثۡوَى﴾؛ أي: محل الثَّواء والإقامة، ولم يَرِد المثوى إلا في وعيد الكفار ونعت النار ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ أي: الذين تكبَّروا عن الإيمان بالله ورسله، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: جهنم؛ أي: بئس منزلُ من تكبَّر عن الإيمان جهنم، ولم يقل فبئس مدخل؛ لأن الدخول لا يدل على الدوام، وإنما الذي يدل عليه الثواء.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الجدال في آيات الله من أعظم أفعال الكافرين.

٢ ـ أن جدالهم في آيات الله مع أنها بيِّنات أمرٌ عجيب.

٣ ـ أن من الناس من يُصرف عن معرفة الحق وقبوله.

٤ ـ أن المجادلين في آيات الله مكذِّبون لكتب الله ورسله.

٥ ـ أن من أنواع الكفر: التكذيب.

٦ ـ أن المكذب بمحمد ﷺ هو مكذِّب لجميع الرسل؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾.

٧ ـ أنهم سيعلمون ضلالهم وقبح فعلهم حين تكون الأغلال في أعناقهم، ويسحبون في الحميم، ثم يسحبون في النار.

٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ [الرعد: ٥].

٩ ـ أنه يُجمَع لهم بين عذاب الجسد وعذاب الروح بالتوبيخ.

١٠ ـ أن الإنسان لا يعلم الشيءَ العلمَ التامَّ إلا بمشاهدته، وهو عين اليقين.

١١ ـ أن عذاب النار أنواع.

١٢ ـ الرد على الفلاسفة القائلين إن العذاب روحانيٌّ، ليس حسِّيًّا ولا جسديًّا.

١٣ ـ ضلال الكفار حتى إنهم يحمدون شركهم.

١٤ ـ الرد على القدرية في نفيهم تعلُّق قدرة الله وإرادته بأفعال العباد؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٥ ـ أن ما يَلقونه يوم القيامة من العذاب هو بسبب فرحهم بما أوتوا من متاع الدنيا وكِبرهم وبسبب كفرهم.

١٦ ـ إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ﴾.

١٧ ـ أن الشيء قد يكون له أكثر من سبب، إما على وجه التعاضد، أو التعاقب؛ لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ وقوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾.

١٨ ـ أن منتهاهم الخلود في النار.

١٩ ـ أن للنار أبوابا.

٢٠ ـ ذمُّ الكبر والمتكبرين، وسوء عاقبتهم.

٢١ ـ ذمُّ جهنم، أعاذنا الله منها.

ولما ذكر اللهُ تحقُّق وعيده في المشركين أمر نبيَّه ﷺ بالصبر على أذى الكفار؛ **فقال سبحانه:**

﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان أَمْرَ الله نبيَّه ﷺ بالصبر على أذى أعدائه وما يقولون، ويسلِّيه، ويهددهم بأن مرجعهم إلى الله على كل حال؛ سواء عجَّل لهم بعض ما توعدهم به في حياته ﷺ، أو أجَّله بعد وفاته؛ فالأمر لا يختلف. ثم أخبر أنه أرسل قبله رسلًا كثيرين، منهم من قصَّ اللهُ أمرهم، ومنهم من لم يقصص عليه نبأهم، وأخبر أن أمر الآيات إلى الله وحده، فهو الذي يأتي بما شاء، لا إلى الرسول.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ إذا عرفت ـ أيها الرسول ـ بُطلانَ دعاوى المشركين وسوء مصيرهم فاصبر على أذاهم وتكذيبهم ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾؛ أي: إن وعده تعالى ثابت لا يتخلف؛ أي: بنصر أوليائه، ودحر أعدائه، كما قال قبل ذلك في هذه السورة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٥١]، وهذا الوعد تأكيد لقوله تعالى السابق: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ شرط محذوف جوابه.

وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ شرط، جوابه ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ ﴿إِمَّا﴾ مركبة من (إن) الشرطية و(ما) الزائدة المؤكدة لمعنى الشرط؛ أي: فإن نُرِك بعض الذي وعدناهم في حياتك من عذاب الدنيا كما حدث لهم من القتل والأسر في بدر، وجواب الشرط محذوف تقديره: فإنَّا قادرون ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ ﴿أَوْ﴾ للتقسيم؛ أي: إن نُمِتك ولم نعذبهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يرجعون إلينا فنجازيهم بأعمالهم، كما قال سبحانه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ [الزخرف: ٤١].

ثم قال تعالى مسلِّيًا نبيَّه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ افتتحت الآية بمؤكدين، هما لام القسم وحرف التحقيق (قد)؛ ليكون أقوى لمعنى التسلية، ودليلا على أهمية مضمون الجملة ﴿رُسُلًا﴾؛ أي: رسلًا كثيرين إلى أممهم ليبلغوهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩]، ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: من قبل إرسالك ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾؛ أي: منهم من أوردنا عليك أخبارَهم وأسماءَهم ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ ومنهم من لم نُورد عليك أخبارَهم، ولك أسوة فيهم حيث صبروا مع ما أصيبوا به من الأذى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ [الأنعام: ٣٤].

قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾ أسلوب (ما كان) في القرآن، تارة يراد به النفي كما هنا، وتارة يراد به النهي، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾؛ أي: وما كان لواحد من الرسل

أن يقدر على أن يأتي بآية حسية أو عقلية ممَّا يؤمن على مثله البشر، فذلك ممتنع عليه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إلا بمشيئة الله، فالآيات من الله وإلى الله، وليس للرسول من ذلك شيء، فطلبها من الرسول هو طلب ممن لا قدرة له عليه، وهذا لون من السَّفه.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قضاؤه وحكمه بعذاب المكذبين في الدنيا ونجاة المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٦ ـ ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤].

قوله تعالى: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل، والقاضي هو الله تعالى، كما قال في هذه السورة: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠]، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾؛ أي: في وقت مجيء أمر الله ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ أي: أهل الباطل وهم الكافرون، والمعنى: وفاز المُحِقُّون وهم المؤمنون.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ أَمْرُ الله نبيَّه ﷺ بالصبر.

٢ ـ أن الصبر أعظم معين من قِبل العبد على الوصول إلى الغايات المطلوبة.

٣ ـ ضرورة الداعي إلى الله إلى الصبر.

٤ ـ أن ما وعد اللهُ أنبياءه وأولياءه من النصر على أعدائهم آتٍ لا محالة.

٥ ـ أن اليقين بالوعد أعظم معين على الصبر.

٦ ـ أن من أنواع كلام الله: الوعد.

٧ ـ أن ما توعَّد اللهُ به الكفار قد يعجَّل بعضه، وقد يكون بعد وفاة النبي ﷺ.

٨ ـ أن الكفار صائرون إلى الله، ومجازيهم على عصيانهم، ومنتصرٌ لنبيِّه ﷺ.

٩ ـ أن الله أرسل قبل محمد ﷺ رسلًا كثيرين.

١٠ ـ أن منهم من قصَّ الله خبره على الرسول ﷺ، ومنهم من استأثر الله بعلمهم.

١١ ـ أن من أنواع كلام الله القصص.

١٢ ـ إقامة الله الحجة على العباد بإرسال الرسل.

١٣ ـ أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب.

١٤ ـ أن كلَّ ما أخبر به الرسول ﷺ عن الرسل هو مما قصَّه اللهُ عليه.

١٥ ـ أن كل ما أخبر به الرسول ﷺ من الغيب فهو بوحي من الله.

١٦ ـ أن مجيء الآيات الكونية والشرعية إلى الله لا إلى الرسول ﷺ.

١٧ ـ إثبات الأمر الكوني، وهو كلام الله الذي يخلق به ما يشاء؛ لقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

١٨ ـ إثبات القضاء الكوني، وهو ما يفعله الله من النصر لرسله والإهلاك لأعدائه؛ لقوله: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾، والقاضي هو الله.

١٩ ـ أن قضاء الله بالحق.

٢٠ ـ جواز بناء الفعل للمفعول في أفعال الله للعلم به؛ لقوله: ﴿قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾، والقاضي هو الله.

٢١ ـ إثبات الإذن الكوني، وهو بمعنى المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ويقابله الإذن الشرعي، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

٢٢ ـ أنه إذا جاء أَمْرُ الله بعقاب المكذبين للرسل، قضى اللهُ بين الرسل وأعدائهم بنصر الرسل، وخسران أعدائهم المبطلين.

٢٣ ـ أن كلَّ عدو للرسل فهو مُبطِل.

٢٤ ـ وعيد الكفار بالخسران.

ولما أوعد اللهُ الكفارَ وهددهم بالعذاب، ذكَّر ببعض نعمه الدالة على ربوبيته وكمال قدرته ورحمته؛ **فقال سبحانه:**

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الامتنانَ من الله على العباد بخلق الأنعام وتسخيرها، وما جعل فيها من المنافع من الأكل والركوب، وما سخَّر من الفلك، وأنَّ ذلك كلَّه من نعمه وآياته، وتوبيخَ المشركين على الإعراض عن آيات الله حتى جحدوها.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ أي: الله ـ وحده ـ هو الذي خلق لكم الأنعام، وسخَّرها لأجلكم، وهي: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، وهي ثمانية باعتبار الذكر والأنثى، كما قال سبحانه: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣ ـ ١٤٤].

ثم ذكر بعض منافعها، فقال سبحانه: ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي: لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها، فـ (مِن) للتبعيض في الموضعين؛ فالغنم والبقر يتعلق بها الأكل، والإبل يتعلق بها الركوب والأكل.

قوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ هذا تعميم بعد تخصيص،

أي: ولكم فيها منافع كثيرة سوى الأكل والركوب من جلودها وأوبارها وأشعارها وأصوافها وألبانها ونتاجها، واستعمالها في الحرث، واستخراج الماء من باطن الأرض، وبذلها في الدِّيات، وغير ذلك، وفي آية أخرى جعلت المشارب لأهميتها مقابلة للمنافع، قال سبحانه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ أي: حاجةً ذاتَ بال تهتمون بها، كحمل أثقالكم وتجاراتكم من بلد إلى بلد، كما قال سبحانه: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧]، ثم هي ذليلةٌ طيِّعةٌ تنقاد للصغير والكبير بيُسر ﴿وَعَلَيْهَا﴾؛ أي: وعلى الأنعام في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾؛ أي: أنتم وأمتعتكم، وهنا مناسبة حسنة؛ حيث جمع بين سفائن البر وسفائن البحر.

فهذه الأنعام من آيات الله المذكِّرة بربوبيته تعالى ووحدانيته، فهي نعمة عظيمة لا غِنى للإنسان عنها؛ إذ تقوم عليها ضرورياته من الطعام والشراب واللباس والتجارة والصناعة، فكان الواجب على العباد شكر المنعِم؛ فإن هذا مقتضى العقل والشرع، وشأن أهل المروءة الاستحياء من المنعِم، قال الأول:

هَبِ البعثَ لم تأتنا رُسْلُهُ ... وجاحمةَ النارِ لم تُضْرمِ
أليسَ من الواجبِ المستحَقِّ ... حياءُ العبادِ من المنعِمِ؟

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾؛ أي: ويريكم اللهُ آنًا بعد آن آياته العظيمة الدالة على قدرته ورحمته في الآفاق وفي أنفسكم ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾؛ أي: فأيَّ آية من تلك الآيات الباهرة تنكرونها؟! فالاستفهام للإنكار؛ أي: فليس ثمَّ آيةٌ واحدةٌ يستطيع عاقل إنكارَها أو

جحدَها، وإضافة الآيات إلى اسم الله وإلى الضمير العائد على الله فيه تفخيم لشأنها، وحثٌّ على التفكر فيها، والقيام بشكرها.

الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات الجَعْل الكوني.

٢ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله؛ لقوله: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾، و﴿لِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾.

٣ ـ رحمة الله بعباده بأن خلق لهم ما يحتاجونه في هذه الحياة.

٤ ـ أن من أعظم نعم الله: ما خلق من بهيمة الأنعام.

٥ ـ ذكر منافع الأنعام إجمالًا وتفصيلًا.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ الآيات [النحل: ٥ ـ ٧].

٧ ـ إباحة لحوم الأنعام من الإبل والبقر والغنم.

٨ ـ إباحة ركوب ما يُركَب منها.

٩ ـ أن منها ما الأصل فيه منفعة الأكل، ومنها ما الأصل فيه منفعة الركوب، ومنها ما يجتمع فيه الأمران.

١٠ ـ أن من منافع الأنعام: قطع المسافات.

١١ ـ الامتنان من الله بمنفعة الركوب.

١٢ ـ أن مبدأ الحاجات في الصدور.

١٣ ـ الشَّبه بين ما يُركَب من بهيمة الأنعام والفُلك.

١٤ ـ الامتنان بنعمة الفُلك.

١٥ ـ الجمع في الذكر بين مراكب البر والبحر، وهو من حُسْن التناسب.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢].

١٧ ـ أن من نعم الله على عباده: أنه يريهم الآيات ليهتدوا بها.

١٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].

١٩ ـ توبيخ المشركين على إنكار الآيات بعد معرفتها.

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

❁ قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

❁ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ توبيخَ المشركين على غفلتهم، فلم ينظروا نظرَ اعتبار في آثار المهلَكين التي مرُّوا بها في سيرهم في الأرض، وقد كان أولئك أكثرَ منهم وأشدَّ قوة، فلم يُغن ذلك عنهم شيئًا، والإخبارَ عن غرور الكفار أعداء الرسل بعلومهم، ممَّا حمَلهم على التكذيب والفساد في الأرض، والاستهزاء بما أخبرت به الرسلُ من الوعيد، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وأنهم لما رأوا بأسَ الله آمنوا بالله وحده، وكفروا بما كانوا يعبدون، فلم ينفعهم إيمانُهم حين رأوا بأس الله، فقد فات أوانُ التوبة، وتلك سنة الله في المكذبين لرسل الله من سائر الأمم، فحقَّ الخسارُ على الكافرين.

❁ التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ تقدم في تفسير هذه السورة حديث عن هذا الأسلوب، أعني همزةَ الاستفهام الداخلة على حرف العطف، ويحسُن التذكير به لأهميته، فنقول: إن للعلماء في هذا الاستفهام **قولين**:

الأول: أنه استفهام تقرير؛ أي: أليسوا قد ساروا في الأرض؟ يعني أنهم قد ساروا وشاهدوا آثارَ الأمم الهالكة في أسفارهم كرحلة الشِّتاء والصَّيف، ولكنهم لم ينتفعوا بهذا السير بأخذ العبرة والموعظة؛ فالسير ـ على هذا القول ـ واقع، وتكون الهمزة هنا ـ على مذهب الجمهور ـ مقدمة من تأخير، والأصل: فألم؛ لأن الاستفهام له الصدارة.

الثاني: أنه استفهام إنكار وتوبيخ لهم على ترك السير؛ أي: القعود، فتكون الفاء في ﴿أَفَلَمْ﴾ عاطفة على محذوف؛ أي: أقَعدوا فلم يسيروا؟ فهو حثٌّ لهم على السير في البلاد والاعتبار؛ فالسير ـ على هذا القول ـ لم يقع، والمنكَر هو ما ولي الهمزة، وهو القعود.

ويؤيد القول الأول وأن السير واقع: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

فالاستفهام على هذا للتقرير؛ أي: تقرير الرؤية والسير، يعني أنهم قد ساروا فعلًا، فالحجة قامت عليهم؛ لأنهم لم ينتفعوا ولم يتعظوا بما شاهدوا بأعينهم من مصارع المشركين، وفي الكلام توبيخ لهم؛ إذ لم يعتبروا بما هو من مواطن العبرة والاتعاظ، فالاستفهام دالٌّ على التوبيخ على كلا القولين.

قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ الفاء عاطفة للفعل على قوله: ﴿يَسِيرُواْ﴾، ويحتمل أنها للسببية؛ أي: فبِسَبب سيرهم ينظرون، ويدل على أنها سببية: قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، فقوله: ﴿فَتَكُونَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ (أن) المضمرة بعد فاء السببية.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾؛ أي: نهاية ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛

أي: مثلهم في الكفر من الأمم المهلَكة الذين كذَّبوا رسلهم كعاد وثمود، وقوم لوط، وما حلَّ بهم من العذاب الهائل، والعقاب العظيم، والاستفهام في ﴿كَيْفَ﴾ للتهويل والتعجيب؛ أي: كانت عاقبتهم هائلة لا يُحيط بها الوصف، ونهايتهم أليمة يعجب منها كلُّ عاقل؛ فقد صاروا عبرة لمن بعدهم.

قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ﴾؛ أي: تلك الأمم ﴿أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: أكثر عددًا من مشركي مكة ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةٗ﴾؛ أي: وأشدَّ قوة منهم في الأبدان وفي البنيان كقوم هود الذي قالوا: مَن أشدُّ منا قوة ﴿وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: وأبقَى آثارًا في الأرض بما بنوا فيها من الحصون والقصور والمصانع، فآثارهم لم تذهب كلُّها، فقد بقي منه بقايا على وجه الأرض، وأهل مكة شاهدوها بأعينهم، فكثرةُ هاتيك الأمم تُعْلِم بالنقل والأخبار، وقوتُهم تُعْلِم بما بقي لهم من الآثار في الديار.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ أي: فما دفع عنهم عذابَ الله ما كسبوه من الأموال ومتاع الحياة الدنيا، فـ (ما) في ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ نافية، ويحتمل أن تكون استفهامية تفيد الإنكار والتعجب؛ أي: أيُّ شيء أغنى عنهم كسبُهم؟! المعنى: لم يغن عنهم شيئًا، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ﴾ [الرعد: ١١].

وفي الآية تهديد بالغ لكفار مكة أن تكون عاقبتهم كعاقبة أولئك الطغاة الذين شاهدوا آثارَهم، وسمعوا أخبارَهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، فاء ﴿فَلَمَّا﴾ للسببيَّة، و﴿لَمَّا﴾ بمعنى حين؛ أي: فحين جاءتهم رسلُهم بالبينات؛ أي: بالدلائل الواضحات الدالة على صدقهم، استخَفُّوا بهم وبما معهم، وفرحوا بما عندهم من علم الدنيا، كالتجارة والزراعة،

وما ورثوا من علوم آبائهم من اعتقادات وأخلاق، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: نزل بهم وأحاط بهم، ولا يستعمل ﴿حاق﴾ إلا في المكروه ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: الذي كانوا يسخرون به وهو العذاب العظيم؛ أي: أحاط بهم من كل جهة؛ جزاء كفرهم واستهزائهم.

قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾؛ أي: فلمَّا عاينت هذه الأممُ عذابَنا الشديد في الدنيا، وأضاف اللهُ العذاب لنفسه المقدسة لهوله، قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾؛ أي: دون ما كنَّا نعبده من الشركاء، ثم أكَّدوا ذلك بقولهم: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ من الأصنام والأوثان.

قال اللهُ مخبرًا عن قولهم: آمنا، وأنه لا ينفعهم شيئًا: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ لأنه إيمان اضطراريٌّ لا اختياريٌّ، فهو كإيمان فرعون حين أدركه الغرق، وقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ﴾ أبلغ من: فلم ينفعهم؛ حيث دخل حرف النفي على فعل الكون لا على النفع؛ فصار المعنى لا يصح ولا ينبغي؛ لأن كونه ممتنعٌ، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: عادته سبحانه التي مضت في عباده، وهي أنه لا يقبل التوبة عند نزول العذاب، وإعراب ﴿سُنَّتَ﴾ مصدر مؤكِّد لفعل محذوف؛ أي: سنَّ اللهُ ذلك سنةً، فهو بمنزلة وعْد الله، ونحوه من المصادر المؤكِّدة ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾؛ أي: عند وقوع العذاب ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الآية دلالة على وجوب المبادرة

بالإيمان قبل نزول العذاب؛ لأن الإيمان بعد نزول بأس الله لا ينفع، ولا ينجي من العذاب.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أسباب الهداية للمتفكرين: السَّيرَ في الأرض، والنظر في آثار من سبق.

٢ ـ أن الغاية من السَّير في الأرض: النظر والاعتبار.

٣ ـ لوم المشركين بعدم الاعتبار بما جرى على الغابرين لمشاهدة آثارهم.

٤ ـ أن الأمم المهلَكة كانوا أشدَّ من قريش قوة، وأكثر عددًا، وأعظم أثرًا في الأرض.

٥ ـ سوء عاقبة المكذبين للرسل.

٦ ـ أن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

٧ ـ الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

٨ ـ أن ما أوتي أولئك المكذبون الكفرة من قوة وكثرة عدد لم يَقِهِمْ عذاب الله.

٩ ـ أن ما جاءت به الرسل من الآيات كانت بيِّنة واضحة، لا عذر لمن أعرض عنها.

١٠ ـ أن العلم النافع هو ما بعث اللهُ به رسلَه عليهم السلام.

١١ ـ أن أعداء الرسل كانت لهم علوم فرحوا بها، فلم تنفعهم تلك العلوم ولم تعصمهم من عذاب الله.

١٢ ـ أن الفرح بما لا ينفع من العلوم الباطلة من أخلاق أعداء الرسل، كعلم السِّحر والفلسفة.

١٣ ـ أن علوم الكافرين لا تهدي أصحابها إلى معرفة الحق، فلا تغنيهم عن علم الرسل.

١٤ ـ بُطلان دعوى فلاسفة اليونان، وهي أنهم لا حاجة بهم إلى الرسل.

١٥ ـ أن الكفار إذا رأوا بأس الله آمنوا ووحَّدوا، وكفروا بآلهتهم، فما نفعهم إيمانهم، بل أخذهم بأس الله، فباؤوا بالخسران المبين.

١٦ ـ أن لله سنَّةً في إهلاك المكذبين لا تتبدَّل ولا تتحوَّل.

١٧ ـ التحذير من سلوك طريق أعداء الرسل؛ فإن سنَّة الله فيهم تجري على كل من أشبههم.

١٨ ـ إثبات العبودية العامة؛ لقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾.

تم تفسير هذا الجزء، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
سورة الزُّمر	٥
سورة غافر	١٢٩
فهرس الموضوعات	٢٥٥